روايات





الإمبراطورة هيلينا

THE EMPRESS
Helena

٥٠ مليما

روايات عالمية

العدد رقم ٣٦٤

الأمبراطورة هيلينا

تأليف لويس دى فوهل

ترجمة السيد وفائى

الجزء الأول : ٢٧٢ بعد الميلاد

- ١ -

كانت القناة غارقة فى سحب من الضباب الكثيف ، عندما كان الرجـل الوحيد فى ذاك المكان ، يتلمس طريقه على الشـاطىء الصخرى ، وهو يسب ويلعن كلما انزلقت قدمه على العشب المبتل ، المتناثر هنـا وهناك كخصلات شعر قبيحة بشعة فوق راس عملاق أصلع .

وكانت قطـرات المطـر تتساقط متثاقلة مترددة ، تبعث الملل فى النفوس وتضاعف من انقباضها فى هذا الجو القاتم . ولم يكن فى كل ما يحيط بالرجل ما ينعش النفس أو يثيرها . لم يكن هناك غير السأم والرطب . وهذا المطر الذى يتثاقل كرجل هرم تقـدم به العمر .

ـ يالها من بلاد لا حياة فيها ولا أمل .

هذا ما كان يردده الرجل وهو يمسح بيده على وجهه :

ـ انها بلاد أقرب ما تكون الى الجحيم .

يا لتلك الفكرة الجنونية التى خرجت به فى مثل هذه الساعة ليراقب هذا الشاطىء الطويل .

لقد حذره روفوس ، الذى كان يعرف هذه البلاد حق المعرفة ، بعد أن قدر له أن يقضى ببريطانيا السبع سنوات الاخـيرة . وأنه ليرثى له . ويرثى لنفسه أيضا لانه لم يستمع الى نصحه أو يستجب لتحذيره ، بل وراح يصيح فى وجهه :

ـ فليكن . اذا ما كنت تخشى على قدميك من البلل ، فلتبق حيث انت بالمعسكر تلعب النرد . لست بحاجة الى تابع . سأذهب بمفردى .

وهكذا نفذ ما عقد العزم عليه بجهالة . وخرج بعـد أن حياه روفوس مشفقا عليه . ألا لعنة الله على هـذا العشب . لعنة الله على هذه الأمطار . لعنة الله على هذه البلاد كلها . ماذا تجدى رقابة

هذه البقعة من هـــذا الشاطىء بحق السماء ؟ ما من عاقل يحاول أن يغزو مثل هذا البلد ، حتى ولو كان الألمان أنفسهم ٠

ان الخدمة فى أى حى من أحياء الراين ، تعد متعة اذا ما قورنت بالخدمة فى مثل هذه الأراضى الرطبة التى يكسوها الضباب ـ ناهيك ببلجيكا أو بلاد الغال ، ان الأمر لم يبد له كما هو الآن عنـــدما وردت الأنباء بنقله الى الخدمة فى شرق بريطانيا وانتزعته من بين خلانه فى الفيلق الرابع عشر بالحرس الامبراطورى فى ميـــلان ٠ أو قل بمقر القيـــادة الامبراطورية السابق ٠ لقـــد دأب القواد على الاستهانة بالأمر منذ أن رحل الامبراطور الى الشرق ـ الى مصر ، فى الحملة التى كانت تقصد تلك الملكة الصغيرة فى سوريا ، الملكة زينوبيا ٠

ولم يساور الضباط الشبان أى شك فيما عســـاه أن يكون الغرض من حملة أورليان ٠ وليعللها كبار القواد بمســـالك الطرق الى الشرق والجنوب والرغبة فى السيطرة عليها ، ولكنهم يعرفون أن زينوبيا الجميلة هى السبب ٠ كما يعرفون أن أورليان العجوز خير من يقدر الحسن والجمال ٠

وهكذا خلا الجو للفيلق الرابع عشر فى ميلان ، وعبث ضباطه ولهوا ماشاء لهم اللهو والعبث ٠ الا أن صاحبنا كان يدرك فى الوقت نفســه ، ان هذه الحياة وذاك الفراغ لا يحتويان على المجال المتسع للطموح والآمال الـكبار ، وانه لا سبيل لتحقيق هذه الآمال الا بانتهاز الفرصة المواتيـــة . وقـــدر أن هـــذه الفرصة تنتظره فى بريطانيا ، القائمة على حدود الامبراطورية الشمالية . وفى الحق انه تمادى فى آماله هـــذه حتى علق على نقله الى هذه البلاد كل رجاء ..

يا لخيبة هذه الآمال منذ البداية ! لقـــد وجد أمامه شرذمة من حثالة الرجال تطلق على نفسها اسم الفيلق العشرين ، على رأسهم قائد ينطلق لسانه بعد الكأس الثالث ، بأنه لم ينقل الى هذه البلاد الا لأنه غير مرغوب فيه فى أى مكان آخر ، انه أوليس كارينـــوس الأصلع البدين الخامل ٠

ـ انه الروماتزم ياولدى ، الروماتزم • انك لن تنجو منه فى هذا المناخ اللعين • لا عليك لا عليك ••

وكيف يمكن أن يجعل الضابط من هؤلاء جنودا جديرين بحمل اسم قيصر والانتساب لفيلقه العشرين . انهم خليط من الغاليين السكارى والبلجيكيين الذين لا يصلحون لشىء ••• وقلة من الألمان والأسبان والاغريق ، حثالة المجندين من كل حدب وصوب •

يا لها من بلاد •• ترى أين يكون هذا الطريق ؟ ان الانســـان لايستطيع فى هـــذه البقعة ان يتبين شيئا امامه لأكثر من ثـــلاث ياردات •

ـ يا الهى ، لقد ضللت الطريق ويا لها من ظاهرة شاذة بالنسبة لضابط ، المفروض فيه أنه يقوم بحراسة الشاطىء ضد ما يحتمل من غزو !

لقد حذره روفوس من كل هذا •• لن تجد الا صخورا وضبابا وامطارا •• وتوقف حيث كان وقد ابتلت ثيابه ، وأحس بالمياه وقد تسربت الى قميصه ، وتأمل سلاحه قائلا :

ـ أما كان الأجدر بى أن اتركه بالمعسكر ؟

ولكنه لم يفعل ذلك لأنه أراد أن يكون قـــدوة حسنة لغيره • بل وما كان روفوس ليقر شيئا من هذا القبيل • ترى ماذا هو قائل عندما يراه على هذه الحال المزرية عند عودته ؟ هـــذا اذا قدر له أن يعود •

لقد كان البحر هناك بعيدا على مرمى النظر • وقد يصبح قريبا منه عندما تنزلق به قدمه ويسقط متهاويا على تلك الصخور مسرعا الى تلك المياه الهادرة التى يسرها أن تتلقف هذا الضابط الرومانى ••

ـ قف مكانك •

ـ لقد سمع هذا الأمر يصدر اليه باللاتينية •

ـ قف حيث أنت • من أنت ؟ •

وفوجىء الضابط الرومانى ، وعقدت الدهشة لســـانه •• انه

لم يكن ينتظر شيئا من ذلك على الاطلاق ٠ أفى مثل هــذا المكان وفى مثل هذه الساعة ؟ انه فى اقليم بريطانى يبعد مئات الأميــال عن الأسوار التى تفصلهم عن قبائل الهمج من الأعداء ٠

، من عساه يكون صاحب هذا الصوت ؟ أقاطع طريق فى مثـل هذا المكان ، المقفر الموحش ؟ وبغريزة الجندى عندما يحس بالخطر ، رفع درعه بيده اليسرى وأسرع بوضــع يمينه على مقبض سيفه قائــلا ؟ :

ـ ومن تكون أنت ؟

ـ لا عليك من هــذا ٠٠ اننى فى بلدى ، أما أنت فلا ٠ ولذلك يتعين عليك أن تجيب على سؤالى ؟

كان صاحب الصوت محتدا ، ولكنه لاحظ انه كان صوتا رقيقا ناعما يافعا فضحك صاحبنا مجيبا :

ـ ألم يسبق لك أن رأيت ضابطا رومانيا من قبل ؟

ـ يا للسخف ٠ أو كان من الممكن أن أتبين رتبتك فى هــذا الضباب ؟

ـ لقد كانت لاتينية صاحب الصوت سليمة ، غير أنهـا كانت مشوبة بلكنة أجنبية . ولم يجد الضابط بدا من أن يجيب قائلا :

ـ الضابط كونستانتيوس من الفيلق العشرين .

ثم استطرد قائلا وفى صوته رنة تهكم :

ـ ومن أنت بحق السماء وأين تختفى من الأنظار ؟.

ـ هانــذا .

ثم برز من بين سجف الضباب طيف انسان غير مسلح . وتقدم كونستانتيوس على أثر ذلك بحذر خشية أن تزل به قدمه . وألقى بالدرع فوق ظهره . ثم أمسك بكتف غريمه الرقيق قائلا :

ـ دعنى أرى من تكون !

ووجد نفسه يتفرس فى وجه فتاة صغيرة السن،لاتكادتتجاوز السابعة أو الثامنة عشرة من عمرها ٠ جميلة الوجه دقيقة التقاطيع متسقة القوام .

وبدا يضحك قائلا :

- يا فتاتى العزيزة ، يلوح لى أنك اخترت وقتا غير ملائم للقاء فتاك !.

- اى فتى ؟ ارفع يدك من كتفى !

واطاعها صاغرا . وراح يتاملها متعجبا من امرها ، لانه لاحظ أن ثيابها تختلف عن ثياب غيرها من بنات وطنها ، كما كانت تتزين ببعض اللآلىء الثمينة . وقال لها وهو يتفرس فى وجهها :

- لقد قلت لك من أنا ، أفلا تقولين لى من انت ؟ ؟

- ايلين . قد تكون ضابطا كما قلت لى ، ولكنك لم تصارحنى بحقيقة امرك !.

- وهل تعرفين عنى غير ذلك ؟ ؟

- اعرف انك لا تعرف اين انت ، والا لما كنت هنا .

- ولماذا لا اكون هنا ؟

- لأنك تضع قدميك على ارض مقدسة غير مسموح لاحد بان يمر بها غير الكهان !.

فقطب كونستانتيوس جبينه ، اذ كان من المتعارف عليه بين رجال الجيش الرومانى ، الا يتدخلوا فيما يمس شعائر البلاد وان يبتعدوا عن كهانهم .وكان قواده يحرصون على اتباع هذه التعليمات وتنفيذها بكل دقة تفاديا من كل ما يشكل . فقال لها بعد ان استعرض كل هذه الاعتبارات بذهنه :

- اذن فانت منهم ؟ !

- هراء بداهة لست من الكهان !. ولكننى هنا لاننى ابنة الملك !.

لئن صح هذا ، لازداد الموقف تعقيدا ، فاذا ما صاحت هذه الفتاة مستنجدة مستغيثة ، لاتاحت لقائده كارينوس فرصة يحاول فيها أن يظهر براعته فى معالجة معقدات الامور . يا لله ! ابنة الملك ؟. ان الملك الوحيد فى هذه الناحية هو كويللوس العجوز ، الذى يقيم فى مكان ما بالقرب من كاميلودينوم !.

ـ ومن عساه يكون والدك يا سيدتى الاميرة ؟ !

ـ كوبل ، انك تعرفه بدون شك ؟ ان كل من التقيت بهم من الضباط يعرفونه .

ـ وهل التقيت بالكثيرين منهم ؟

ـ اجل . رايت الكثيرين .

ـ يبدو لى انك لا تحبين الضباط الرومانيين .

ـ اننى لا احب الرومانيين حقا . ولكنك يجب الا تخبر والدى باننى صارحتك بذلك ، لانه لا يقر مثل هذه الصراحة !.

ـ ما اظن الا انه على حق فيما يرى . انك تخاطرين بهذه الصراحة .

فاستشاطت غضبا وهى تقول له :

ـ هراء ما تتحدث به . ان والدى اكثر شجاعة من اى رومانى . ولكنه يؤمن بأنه من الخير عدم مصارحة الناس برايك فيهم اذا ما كان فى هذا ما يؤذى شعورهم !.

ـ انه لشعور جميل منه . وانت ، الا توافقينه على ذلك ؟!.

ـ لا يعنينى ان اوذى شعور الناس ، اذا ما اعتقدت انهم يستحقون ذلك !.

انها لفتاة قوية الشخصية ، ليس فى ذلك من شك . ثم تبادر الى ذهنه ما قالته له عن قدسية هذه الارض ، فقال لها :

ـ ارى انك على حق فى امر واحد على الاقل . لقد ضللت طريقى فى هذا الظلام فعلا ، واقسم اننى اشعر بالاسف الشديد لهذا الخطا غير المقصود !.

فتاملته الفتاة بنظرة حائرة قائلة :

ـ اما وقد اعترفت بالحقيقة ، واعتذرت عن اقتحامك لهذه الارض المقدسة ، فليس اقل من ان اعاونك على الخروج من هذا المازق .

وتقدمته ، وتبعها متمتما بآيات شكره . ثم استفسر منها عن المسافة بينهما وبين المعسكر . فقالت له :

ـ مسيرة خمس ساعات على الاقل . انك لن تسـتطيع ان تواصل سيرك الى هناك الليلة ، انك ذاهب معى الى والدى .

وراح الضابط يقلب الامر فى ذهنه . انه يعرف من كويللوس العجوز خشونة طباعه وغرابة اطواره وميله للعزلة . ان عدد من التقى بهم من ضباط فرقته لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، بمـا فيهم كارينوس . ان هذا العرض الذى بدأ منها لا يروقه ، فقـد يستتبع ذلك بعض الاشكالات الدبلوماسية وغير القليل من الحرج. ولكنه هز كتفيه فى غير اكتراث ، لأنه لم يجد مفرا من أن يتبعهـا الى حيث ارادت له ذلك . ومهما يكن من أمر ، فانه لم يعـد فى ميلان ، حيث البلاط الأمبراطورى ، الذى يؤول فيه كل ما يقوله المرء ويفعله تأويلا غير ما كان يقصده أو يعنيه .

ـ فليكن يا سيدتى الأميرة . متى سنصل الى هناك ؟.

ـ بعد نصف ساعة حسب معدل خطواتنا هذه. لوكنت بمفردى لبلغت القصر فى نصف هذا الوقت .

ـ انك لا تعانين من ثقل ما احمل من سلاح .

ـ لم يكن بك حاجة لأن تثقل على نفسك بكل ذلك . انك فى بلد مسالم . ولكنكم معشر الرومان تحبون أن تذرعوا البلاد طولا وعرضا متباهين بدروعكم وسيوفكم وبثقل خطواتكم! لم راحت تقلد بصوتها وقع خطوات جيوشهم ، فضحك وهو يقول لها :

ـ ستعرفين فضل هذه الجيوش عليكم يا طفلتى العزيزة فى يوم ما ، انها حيثما تدب باقدامها تحمى الأرض التى تردد صـدى خطواتها .

ـ اظن ان فيالقكم قد بلغت أرض سوريا الآن !

ـ انها حملة !!

اجل . ضد امرأة ! وانى لاتساءل : هل ترى هى رأيكم !

« زينوبيا ! . كلا . ما اظنها الا معلنة انها حرب هجومية . وهذا شأن من يحاربون جميعا !

واستطاع أن يتبين ابتسامتها الساحرة وهى تقول :

ـ انها جديرة بكل اعجاب . لقد هزمت جيوشا كثيرة تقودها الرجال ، اليس كذلك ؟ . وانها لفاعلة ذلك مرة اخرى .

ـ ما اظنها بقادرة على ان تهزم الامبراطور ، يا طفلتى العزيزة.

ـ سنرى ماذا سيكون من امره . انها امراة عظيمة . عظيمة مثل كليوباترة ، عظيمة مثل ...

فقاطعها قائلا :

ـ لقد وعيت دروس التاريخ . ولعلك لم تنسى كيف كانت نهاية هؤلاء النساء . .

ـ وكيف كانت نهاية قيصر ؟ .

واسرعت الخطى غاضبة محنقة واسرع خلفها محاولا الا تغيب عن عينيه ، وقد ايقن ان اللحظة ليست ملائمة لهذا النوع من النقاش .

ومما اثار دهشته ان يصادف فتاة لها مثل هذه الآراء ، وبالذات فى بريطانيا .

ـ ماذا قلت لى عن اسمك يا سمو الاميرة ؟

ـ ايلين . لعلك تذكره فى يوم من الايام .

ـ لن أنساه ثانية . ايلين ـ انه هيلينا عندنا ـ لعلك سمعت عن قصة هيلينا ، هيلينا التى نشر جمالها الموت بين الكثير من الرجال ؟

ـ لا اعرف عنها شيئا . ان الجمال ليس كل شيء ..

ودهش كونستانتيوس ، وهو يتأملها مرة أخرى ، ان تقول هى ذلك وهى الجميلة الرائعة الحسن .

- ٢ -

بدا الملك كويل فى شعره الأشيب وشاربه الكث وحاجبيه الغزيرتين ، شيخا عطوفا رقيق الحاشية ، عندما كان جالسا فى بهو قصره ، واقبلت عليه ابنته وبرفقتها كونستانتيوس . وبالرغم

من انه لم يكن هناك من الخدم من يعلن قدومهما ، الا أنه لم يبد على الرجل انه دهش لقدمهما بل استقبلهما قائلاً :

ـ مرحى ، مرحى ، بابنتى وبضيفها ، الا من يحضر كاسا من النبيذ للسيد كونستانتيوس .

وحملق الضابط فى وجه الملك دهشا وهو يقول له :

ـ كيف عرفت اسمى يا جلالة الملك ؟ اننا لم يسبق لنا أن تقابلنا .

فضحك الملك قائلا : ان ابنتى أصغر سنا من أن تحاط علما بكل شىء . ان لى وسائلى التى أطلع بها على كل شىء . وانى لآسف لما سببه لك طقس بلادى الردىء من ازعاج . انتى لا أملك حياله شيئا .

واقبل الخادم حاملا قارورة النبيذ ، مما اتاح للضابط الرومانى بعض الوقت للتفكير . وجال بخاطره ما يقوله بعض الناس عن هذا الملك وعن شذوذه ، وما يقوله آخرون عن خداعه وخبثه ، وتظاهره بالجنون لاغراض فى نفسه . وقرر أن يحتفظ بحكمه الأخير لآخر لحظة . واحتسى كاس النبيذ الذى قدم له ، وسمع الملك يستطرد قائلا :

ـ وكل ما أستطيع أن أفعله لأعوضك عما لاقيت من عناء ، أن آمر لك بحمام ساخن من النوع الذى اعرف انكم تفضلونه . لكل منا مشاربه وعاداته ؛ وقد يبدو كل منا فى عين الآخر شاذا فى ناحية ما ..

وانصرف الضابط الرومانى بعد أن أذن له الملك بالانصراف .

وتوجه الى حيث اغتسل واستبدل ثيابه المبتلة بما أمر به له الملك من ثياب جديدة استعدادا لتناول طعام العشاء بناء على دعوة الملك له .

***

كان عدد الجالسين الى مائدة الطعام اثنى عشر . الملك وهيلينا وامراة مسنة كانوا ينادونها باورجين وفضل لها كونستانتيوس اسم « فيرجينيا » وكانت تبدو كاحدى الوصيفات ، والباقون رجال

من كبار السن ، بدا عليهم انهم من مستشارى الملك وكبار رجال البلاط .

وجلس الضابط الرومانى يستمتع بطعامه ، وكان الملك قليل الأكل والشراب كثير الكلام ، وقد تعلقت انظار الجالسين حول المائدة به . اما هيلينا فكانت ملتزمة جانب الصمت . واستطاع كونستانتيوس أن يتأملها مليا ويزداد اعجابا بجمالها . بذلك الوجه الدقيق التقاطيع الحلو الملامح ، وبهاتين العينين السوداوين بأهدابهما الوطف ، وبتلك البشرة الملساء الرقيقة ، وبهذا الفم القرمزى الجميل . يحيط بهذا كله اطار من شعرها الأسود الفاحم الذى يتوج رأسها بجبينه الوضاء المشع ذكاء .

يحتمل ان تكون هذه الفتاة اسبانية . ويحتمل أن تكون من أصل غالى . بل ولم لا تكون رومانية . هذا ما جال بخاطر الضابط الرومانى عندما كان يتأملها . وقطع عليه حبل تفكيره صوت الملك قائلا ، وكأنه قد قرأ أفكاره :

ـ ان ايلين تبدو فعلا كاحدى فتيات الرومان ، أليس كذلك ؟

ثم ابتسم لما لاحظه على وجه الضابط من علامات الدهشة مستطردا :

ـ ولكنها لا تحب الرومان كثيرا ، كما انها لا تعترف الا بالمولودين فى هذه الجزيرة .

فضحك كونستانتيوس ضحكة رقيقة خافتة . واصطبغت وجنتا الفتاة بحمرة الخجل ، ولكنها لم تعقب بشىء . واستطرد الملك موضحا .

ـ لقد حاولت أن اثنيها عن رأيها هذا لما فيه من خطأ جسيم ، أن الناس لا يجب أن يقاس قدرهم بمعيار واحد . لقد مثل امامى بالأمس رجل أحدب . وشكا لى بمرارة من ظلم القدر له . فلما سألته ان يحدد لى ما يشكو منه ، اجاب بأنه يتظلم من تشويه خلقه . فطيبت خاطره قائلا : « ولكنك لا تبدو قبيحا كرجل احدب يا صديقى » .

وتحرك كونستانتيوس على مقعده قليلا . ولم يكن واثقا مما عناه الملك بقوله هذا . ولم يتبين ما اذا كان جادا أو مازحا .

وواصل الملك حديثه قائلا :

ـ ان الرومان هم الرومان . وعلى هذا الأساس يجب ان يكون تقديرنا لهم . ان سمات ايلين فعلا تجعلها قريبة الشبه بالرومان . ولطالما تساءلت فيما بيني وبين نفسي عما اذا كانت قد قدر لها انها ستولد صبيا ، ثم شاءت المقادير بخلاف ذلك في آخر لحظة ؟

فعقب كونستانتيوس على قائلا :

ـ لو تحقق هذا ، لكانت قد اصبحت من كبار القواد المحاربين بدون شك !!

ـ انها لكذلك فعلا الم تقتل ذئبا منذ اسبوعين ؟

قال الملك ذلك وهو يتأمل النبيذ في كأسه .

وهنا تكلمت هيلينا اخيرا :

ـ كان ذئبا صغيرا . وكان ذكرا .

فأومأ الضابط برأسه موافقا وهو يقول :

ـ فعلا ، ان انثى الذئب اشد خطرا من الذكر . لقد قيل لي بأن الذئاب قد أوشكت على الانقراض من هذه البلاد منذ وفد الرومان عليها !!

فعضت هيلينا على شفتها . وبدا ان الملك قد فهم ما يعنيه الضابط وهو يقول له :

ـ ان كلامنا يمر بعمر الذئاب . ثم يمضي بنا العمر ليتخطى هذه المرحلة ، وينتقل بنا الى مرحلة الدعة والسلام . لقد كنت ذئبا عندما كنت شابا يافعا . لقد مضى هذا العهد وانقضى منذ زمن طويل . ولكنه لم يكن في طول عهد روما التي أشرت اليها في حديثك يا كونستانتيوس !.

ـ انك لعلى حق فيما تحدثت به يا سيدي الملك . ان روما لا تريد غير السلام .

فتدخلت هيلين محتدة :

ـ ستسر زنثوبيا كثيرا لو سمعت ذلك .

فاجابها الضابط الرومانى :

ـ ان ملكة تدمر ضحية بطانتها التى لم تخلص لها النصح . لقد تلقينا تقارير مؤكدة عن اعتزامها ان تجعل من مصر اقليما سوريا ولم يكن هذا الا خطوة مبدئية نحو اقامة امبراطورية تدمر .

فتدخل الملك قائلا :

ـ سوريا ، انها الشرق . ولم تكن روما معروفة يوم ان كان الشرق قبلة العالم ومصدر وحيه ان الدنيا تتغير .

وشعر كونستانتيوس بالحرج ، وراح يعيد ملأ كاسه وهو يحدث نفسه عن حقيقة ما عليه هذا الملك . ولاحظ ان هيلينا تختلس النظر اليه دون ان تعلق بشىء ..

واستطرد الملك فى حديث طويل عن حكام روما وميلان وعدم ايمانهم بالأساطير التى هى فى عرفه الحق الوحيد . وراح يتحى باللائمة على كل من لا يؤمن بهذه الأساطير وفهم ابنته التى يرجو لها ان تؤمن بذلك فى يوم من الايام وظل الملك يتكلم ، وظل الضابط الرومانى يصغى اليه فى ملل ، حتى غلب النعاس الملك ، ومال براسه على المائدة واستغرق فى سبات عميق .

وعقبت هيلينا على ذلك قائلة :

ـ انها قصته المحببة . وهى التى تجلب النعاس الى عينيه كلما اطنب فى سردها . هل فرغت من تناول طعامك ؟ . اذن سادعو الخادم ليرشدك الى غرفتك .

ونهضت من مقعدها ، وحذت فيرجينيا حذوها . فقال لها الضابط متسائلا :

ـ وهل يتعين على ان آوى الى فراشى بالأمر ؟

ـ لك ان تفعل ما تشاء . ولكن ، لا يوجد ما تفعله غير ذلك؟ لقد انتهى اليوم ؟

ـ يمكننا ان نجلس لنتبادل الحديث .

وكانت هيلينا قد شغلت بصرف الاعيان الثمانية من مجلس الملك النائم . وبعد ان انتهت من ذلك استدارت له قائلة :

ـ يمكننا ان نفعل ذلك غدا ، اذا اردت وسآمر باعداد الجياد اللازمة لك فى الصباح . طابت ليلتك .

ـ طابت ليلتك يا سمو الأميرة .

ثم أصدرت أوامرها للخدم بحمل الملك الى فراشه ..

- ٣ -

كان صباحا صحوا منعشا جميلا . واستيقظ كونستانتيوس من نومه ليجد ملابسه وعدة سلاحه نظيفة معدة بجوار فراشه . وجريا على مألوف الرومان احضر له جاللو الخادم ، نبيذا ممزوجا بالعسل الأبيض . وكانت حركة موفقة ممن أمر بها ، لم يستطع الضابط الرومانى أن يتخلص من اسنوها . وحاول أن ينسب الفضل فى ذلك الى أى من الملك أو ابنته ، غير ان كفة الملك كانت الراجحة لأنه يعرف عن هيلينا كرهها للرومان . ولكن لماذا ؟ . أبدافع الوطنية والتعصب الشعوبى ؟. ان بريطانيا كانت اقليما خاضعا للرومان على مدى ثلاثة قرون . ان شعورها هذا عجيب حقا ..

وتناول طعام افطاره حيث تناول طعام عشائه بالامس ، ولكنه كان يجلس الى المائدة فى هذا الصباح وحيدا ، الا من جاللو الذى قام على خدمته .

وبعد أن فرغ من طعامه ، نهض مستفسرا من الخادم عن الملك وقبل ان يسمع ردا منه ، سمع وقع اقدام مقبلة فى اتجاه القاعة التى كان يتناول افطاره بها . واقبلت عليه هيلينا قائلة :

ـ عم صباحا . هل أنت مستعد ؟

ـ أجل . ولكنى لم أستأذن من الملك بعد .

ـ لقد خرج الملك الى جولته الصباحية . لا عليك من ذلك . هيا بنا . سأذهب معك لأعود بالجواد .

ـ يشرفنى ذلك . وخرجا الى فناء القصر وهو يعجب فى

نفسه من امر هذه الفتاة ومن امر ابيها . ووجد امامه جوادين من خير الجياد . قالت له وهى تعتلى ظهر جوادها :

ــ ستبلغ المعسكر بعد ساعة .

ثم لوت عنان جوادها فى مهارة الفارس القدير . وقفز بدوره الى ظهر جــواده ولحق بها . وبعد قليل وصــلا الى ضفة النهر ولاحظ ان هيلينا توقفت فجاة . ووقع نظره عــلى تل صغير فى الناحية الاخرى بعيدا عن النهر على مرمى البصر ، ولم يستطع ان يرى اكثر من رداء ازرق يعلوه راس اشيب ، فخيل اليه انه احد الرعاة او الفلاحين . ثم ادرك من نظرات الاميرة انه والدها الملك . وتحركت هيلينا بجوادها لتعبر النهر ، فتبعها بعد ان رفع ذراعه محييا الملك الذى كان مستغرقا فيما كان فيه ولم يرد عليه تحيته .

وجاهد حتى لحق بالأميرة على الضفة الأخرى . قال لها :

ــ اظن انه والدك . هناك على قمة التل .

ــ ربما . ما من أحد يعرف شيئا عن حركاته .

ولكزت جوادها وانطلقت به عدوا . وأدرك من ذلك انها لا تبغى مواصلة الحديث فى هذا الموضوع .

ووصلا الى المعسكر بعد ساعة . وحياه الحارس الواقف عند الباب الجنـوبى . وعرض عليها أن تدخـل معه لتستريح وتريح جوادها . ولكنها اعتذرت . وقبل ان يعاود دعوته ، اقبل عليهما الضابط كومينتوس بالبوس مسرعا .

ــ هانتذا أخيرا يا كونستانتيوس .. لقــد ظن الجميع ان حادثا ما قد وقع لك . ما ابدعه من حادث .

قال ذلك وهو يتأمل الاميرة بعينيه :

فقطب كونستانتيوس جبينه وهو يقدمه لهيلينا قائلا :

ــ الضــابط كومينتوس بالبوس . الاميرة هيلينا ابنه الملك اكويللوس .

فابتسم بالبوس قائلا :

ـ بحق جوبيتر ، انك لتعـــرف كيف تقضى وقتك ، تراقب الشواطىء البريطانية نهارا والاميرات البريطانيات ليلا . يالهـــا من مهمة ..

فامتقع وجه كونستانتيوس ، ثم أقبل على زميله قائلا :

ـ لعلك اكثرت من تناول الخمر . عليك أن تعتـــذر للأميرة فورا عما بدر منك !

فشد بالبوس من قامته قائلا :

ـ لا حاجة بك لأن تحدثنى بهذه اللهجة . أولا لأنك قضيت وقتا مع هذه ...

فاسرع كونستانتيوس بالقفز عن ظهر جواده وقد اســـتبد به الغضب قائلا :

ـ هل ستعتذر فورا . أم ارغمك على هذا ارغاما ؟...

ـ هيا نفذ وعيدك . بودى لو أعرف كيف سيكون ذلك ؟

ـ سترى وستتعلم .

واسرع كونستانتيوس اليه يمسك بخناقه وقد أعماه الغضب . ووجه بالبوس لكمة الى وجه كونستانتيوس ولكن هذا لم يشـــعر بها . وظل مطبقا بأصابعه على عنق غريمه . ولم يرحمـــه منه الا سماع كونســــتانتيوس لوقع حوافر جواد الاميرة وهى تنطلق مبتعدة عنهما . والتفت ليراها منطلقة وقد تهدل شعرها الاســـود الفاحم على ظهرها تلعب بخصلاته الرياح .

ودفع كونستانتيوس الضابط بالبوس وهو يلعنه . فترنح هذا وسقط عند قدمى القائد كاريئوس الذى تصادف مروره فى هذه اللحظة بالذات .

ـ يا للمشهد الاخاذ . ستمثلان أمامى بعد نصف ساعة . ان لى معكما لشأنا .

ثم استدار يضرب الأرض بقدميه غاضبا . وقد تبعه من كان برفقته من ضباط .

وتأمل كونستانتيوس غريمه وهو يحاول ان ينهض بمســـاعدة اثنين من الجنود قائلا :

ـ بيننا حساب طويل »
وحدجه بعينين تتقدان شررا . ثم انصرف وهو يحدث نفسه قائلا :
ـ لا عجب من أنها تكره الرومان . انهم اكثر الناس حمقا وغباء ...
ونسى فى غمار غضبه حقيقة موقفه . واقتضى منه استعادته لهدوئه بعض الوقت قبل أن يتبين تلك الظروف السيئة التى القت بهذا الضابط فى طريقه ، ثم بجرور قائدهم فى تلك اللحظة بالذات.
واستقبله تابعه روفوس كما تستقبل الأم ولدها العائد اليها متسخ الثياب مغبر الوجه . وعلم الضابط من تابعه بكل ما كان فى غيابه من قلق عليه ، وبما قاله القائد عنه من انه احسن ضباطه فابتسم كونستانتيوس قائلا :
ـ ما اظنه الآن الا وقد غير رأيه فى ! ولكنه طاب خاطرا بماله من تقدير فى نفس قائده ، قد يكون له أثر فى تخفيف غضبه عليه . وأمر تابعه بتنظيف ثيابه استعدادا لمثوله امام قائده .
ولما دخل خباء القائد ، وجد بالبوس قد سبقه الى هناك . وكان وجهه منتفخا ، وعينه اليمنى متورمة . وعلى اثر وصوله ازاح كوريو مساعد القائد الستر الفاصل معلنا قدوم الضابطين .
وبعد ان أديا لقائدهما التحية العسكرية ، وقفا وقفة انتباه فى انتظار أوامره .
وكان القائد كاربنوس جالسا الى مكتبه يوقع بعض الأوراق ومرت برهة دون ان يعيرهما اى التفات . ولما رفع وجهه اليهما اخيرا ، تبين الضابطان فيه ملامح الضجر والاشمئزاز التى تعتمل بها نفسه .
ـ من أوجب الواجبات لدى الضابط ان يكون مثالا للرجل المهذب المثقف . وانه ليدهشنى ان أراكما تتشاحنان كما يتشاحن المصارعون المخمورون .
وباشارة من يده أوقف الضابطين عما كانا بسبيله من ايضاح، ثم واصل حديثه قائلا :

ـ كونستانتيوس ، لقد تخلفت عن طابور الصباح . فما هو مبررك ؟

ـ لقد خرجت لمراقبة الشاطىء بعد ظهر أمس يا سيدى . وما هو الا قليل حتى حاصرنى الضباب وضللت طريقى . واخيرا تمكنت بمساعدة بعضهم من أن أصل الى قصر الملك كويللوس حيث قضيت الليل .

ـ وهل قابلت الملك ؟ !

ـ اجل يا سيدى ، التقيت به ورحب بى واكرم وفادتى وفى الصباح تكرمت ابنته باعادتى الى المعسكر ..

ـ ابنته ؟ الفتاة التى شاهدتها تعدو بجوادها ؟!

ـ اجل يا سيدى . وما ان وصلنا الى مدخل المعسكر ، حتى قابلنا الضابط بالبوس وأهان الأميرة اهانة ...

ـ ان كل ما قلته ...

ـ صمتا أيها الضابط بالبوس .

بهذا قاطع القائد الضابط وقد احتقن وجهه غضبا ثم قال :

ـ فلتتابع روايتك أيها الضابط كونستانتيوس .

ـ لقد علق بالبوس على قضائى الليل بالقصر بصورة سمجة. ونهض القائد عن مقعده قائلا :

ـ وهل سمعت السيدة ما قاله بالبوس ؟.

ـ حرفا بحرف . وانها تلم باللاتينية الماما تاما . ولقد نطق بما نطق فى مواجهتها !.

ـ وماذا فعلت بعد ذلك ؟ !

ـ أمرت بالبوس بأن يعتذر للسيدة فرفض . فما كان منى الا أن .. وانك لتعرف ما كان بعد ذلك يا سيدى ...

ـ وحق سقر ، انى لا أعرف ما كان وما سيكون مما لا تعرفه أنت .. وأنت يا بالبوس ، ما هى اقوالك ؟!

ـ اننى لم أشر صراحة الى ما يمس السيدة مباشرة .

ـ انه لم يقل ذلك . لقد ذكر انك اهنت الأميرة تلميحا .

ـ لم اتعمد ذلك يا سيدي ..

ـ افهم هذا . لقد اردت ان تتظاهر بظرفك وخفة روحك .. ولكن تصرفك هذا قد يكلف روما غاليا ، ان الأميرة ميليتا هي الابنة الوحيدة للملك كويللوس ، حليف روما ، الذي يأتمر بامره خمسة عشر الف مقاتل في ميدان القتال ، وهانتذا تجعل منها هدفا لتندرك ايها المهرج الاخرق .

واسقط في يد بالبوس ، وبهت كونستانتيوس لما سمعه عن الملك ، الذي لم يكن يرى فيه أكثر من اقطاعي ، لا حاكما وقائدا أكبيرا لجيش له خطره .

واستأنف القائد مجلسه ، ومسح بيده على جبينه قائلا :

ـ بالبوس ، ستسافر بعد ظهر اليوم الى الشمال ، الى السور العظيم ، انك لا تصلح للخدمة في هذه الناحية من البلاد .. وهناك في الشمال ، سيتسع لك المجال لتستعرض خفة روحك ومواهبك بين الاسكتلنديين ما طاب لك . ولو كنت مكانك ، لالتزمت جانب الحذر لأنهم قوم لا يميلون للدعابة والهذر ، لا حاجة بك لأن تستأذنني في السفر . اذنك معك من الآن !.

وبعد أن انصرف الضابط بالبوس ، اضطجع القائد في مقعده مستغرقا في تفكير طويل . وظل كونستانتيوس واقفا مكانه قلقا . وأخيرا تحرك القائد في مقعده ، واتجه بحديثه الى مساعده كوريو قائلا :

ـ عجيب ان يقع هذا اليوم وفي تلك الظروف . يحسن بنا أن نصارحه بالامر .

ـ اجل يا سيدي ، لقد كان توقيت الحادث غير مناسب ..

ثم وجه القائد حديثه الى الضابط كونستانتيوس قائلا :

ـ اجلس ايها الضابط ..

ـ شكرا يا سيدي .

وحدجه القائد بنظرة ثابتة قائلا :

ـ ان كلّ ما ستسمعه الآن يعتبر من الأسرار العسكرية التى تستدعى الكتمان .. هل فهمت ؟!

ـ اجل يا سيدى القائد .

ـ حسن .. لقد بلغتنا انباء سيئة من بلاد الغال .

ـ اهى ثورة يا سيدى ؟

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لقد استنتجت ذلك . اننى اعرف بلاد الغال جيدا . هناك هوة عميقة الغور بين ملاك الأراضى والفلاحين..

ووافقه القائد على حدسه . والقى اليه بتعليماته التى تقضى بسفر فرقة كاملة الى هذه البلاد لقمع الثورة . واستطرد قائلا :

ـ ومن هنا تدرك اننا فى امس الحاجة لتأمين جانبنا هنا بعد رحيل هذا المدد الكبير من قواتنا ، زد على ذلك اننا لا ننتظر وصول امدادات الينا من اى مكان آخر . هذا وقد قررت أن ابعث بمندوب الى الملك كويللوس . يحمل عنى رسالة اليه مشفوعة ببعض الهدايا . لكم كنت أود أن اعرف اى نوع من الهدايا ابعث بها اليه .

ـ ليكن شيئا مصنوعا من الخشب . انه يحب الخشب ويقدسه ، كما علمت من حديثه الطويل ليلة عشائى معه . انه لا يفتأ يتحدث عن الخشب طوال الليل والنهار كما علمت من ابنته .

ـ انه من مقدسات الاله جوبيتر ..

ـ تماما يا سيدى .

ـ اذن فلتذهب أنت بالهدية وبالرسالة اليه .

ـ انا يا سيدى ؟

ـ اجل انت ، ومن تراه يصلح لهذه المهمة غيرك ؟ ولتحضر لمقابلتى باكر بعد طابور الصباح .

ـ سمعا وطاعة يا سيدى .

كان الملك كوبل جالسا على صخرته المحببة الى نفسه فى غابته الاثيرة لديه . وكانت هيلينا جالسة عند قدميه . تتطلع بعينيها الى ما وراء الجبال البعيدة . هكذا كانا يجلسان ، وقد ران عليهما صمت مطبق طال عليه الأمد .

ـ انني لا أريد الزواج به يا ابتى .

ـ لا تريدين ؟

ـ بلى ، انه متعجرف يتفضل على بمسايرة ارادتى تلطفاً ومجاملة .

ـ انك غضبى لانك لا تستطيعين السيطرة عليه . وانك ان استطعت ذلك لاحتقرته . انك لا تعرفين هذا جيدا وانك تقولين مالا يقوله قلبك .

وضحك الملك مداعبا ابنته .

ـ انني اريد ان اصبح كزينوبيا . انني لم اخلق لاجلس فى عقر دارى ، اقطع الوقت فى الحديث مع الخدم وأتحكم فى توافه الأمور .

وابتسم الملك مشفقا مما يسمعه فاستطردت قائلة :

ـ مهما يكن من أمر ، فانني لن أتزوج كونستانتيوس . انه يعاملنى كطفلة مع انه هو الطفل . كما انه لا يؤمن بآلهته ولا بأى شىء آخر .

ـ كفى عن مثل هذا الحديث ، حتى تستطيعين أن تسمعى حديث قلبك . انه لم ينقطع عن الحضور طوال هذه الأسابيع .

ـ محملا بالهدايا ليأسروا قلبك ، لأنهم فى حاجة اليك يا والدى . هؤلاء القوم لا يفكرون الا فى اطماعهم وفى امبراطوريتهم فى روما . لقد صارحته بالا يضيع وقته سدى فى زيارات المجاملة هذه . ولعلك لا تعرف انه سيكون مسئولا عن قيادة الفيلق فى غياب كاروزيوس . ولا يجدر بالقائد أن يترك مقر قيادته .

وتظاهر الملك بانه لم يسمع شيئا مما قالته . وقال لها :
ـ لقد ابلغت بأن هناك بعض المتاعب فى احدى قرى الجنوب. وسأتوجه لاستطلاع الأمر وسأعود فى الليل . اتركينى الآن. ولقد أصدرت اوامرى لجاللو باعداد وليمة رسمية حددت لها بعد الغروب بساعة !.

فتأملت والدها دهشة . ان الولائم الرسمية لها وضعها الخاص وودت لو سألته عن مناسبة اقامتها ، ومن سيدعى اليها ولكنها لاحظت أن والدها قد استغرق فى نومه كعادته بعد أن تدلت رأسه على صدره !.

ونهضت فى سكون وهى تتحاشى ازعاجه وانحنت فى رفق لتودع شعره الأشيب قبلة حانية . ومشت بين الأشجار آمنة مطمئنة على سلامته ، حتى من الذئاب الضارية ، وتوقفت بعد قليل ، لتلقى نظرة على والدها فى ردائه الأبيض ورأسه المائل بتاجه الأبيض ، وجال بخاطرها ان والدها قد تقدم به العمر، واقترب من نهاية الحياة ، فجزعت لهذا الخاطر وارتجفت . انها لا تريد له أن يموت . انها فى أشد الحاجة اليه . ان حياته بالنسبة اليها تعنى كثيرا . انها لا تستطيع أن تقنع نفسها باقتراب هذه اللحظة الرهيبة . انها لا تستطيع أن تقنع نفسها باقتراب هذه اللحظة الرهيبة .

ولما بلغت حدود الغابة واشرفت على الطريق الرئيسى الممتد على جانب النهر ، وقع نظرها على فارس يعدو من بعيد . انه هو ...

والتقيا على مقربة من القصر . ولاحظت ، وهو يترجل عن ظهر جواده ، أنه منفعل مبتهج كمن يحمل أنباء حسنة ، أو كمن يترقب شيئا من هذا القبيل .

ـ ماذا يشغلك من مهام وظيفتك يا سيدى الضابط ؟

ـ هيلينا ، لا تتفوهى بشىء .. انك على حق فيما تقولين .. ان تأثيرك على لا ينكر ، وانه ليزداد يوما بعد يوم . لقد اصبحت شغلى الشاغل .



ولم تعقب بشيء ..
وعندما بلغا باب القصر ، عهد بجواده الى احد الخـــدم ثم سألها :
ـ اين والدك ؟
ـ ذهب لزيارة قرية في الحي الجنوبي ، لمواساة أهلها بسبب ما حل بهم نتيجة العاصفة .
ـ انه بمثابة الاب لشعبه ! ياله من ملك حكيم رحيم !
وخلع خوذته وهما يدلفان من باب القصر الخارجي . فاطرت جمالها ودقة صنعها . وعلمت منه أنها مصنوعة في بلد غير روما، وتطرق بهما الحديث حتى علمت منه ان عدة سلاحه كلها مصنوعة في اسبانيا . فقالت له متهكمة :
ـ وماذا بقي بعد ذلك لروما ؟ روما مقر الامبراطورية بجلالة قدرها !. أنظر الينا نحن الشعب الفقير التابع لكم ـ الشعب الهمجي في اعينكم ـ اننا نعيش على أرضنا ونعتمد عليهـــا . ونصنع اسلحتنا بأيدينا . اننا لا نكلف غيرنا بالعمل أو بالقتال نيـــابة عنا كما تفعلون أنتم في روما !.
ـ لماذا تكرهين روما الى هذا الحد ياهيلينا ؟ لطالما وددت أن اوجه اليك هذا السؤال . وعلى أي أساس تبنين حكمك هذا ؟
ـ انا لا أكره روما . كل ما في الأمر انني أحب بلادي . ان روما لا تعني شيئا بالنسبة لي .
ـ ومع ذلك فان هذه الارض التي تقفين عليهـــا هي جزء من الامبراطورية الرومانية ..
وكان يقول ذلك ليثيرها ..
ـ هكذا ؟ اذن فهذه أرض رومانية ؟ وشدت من قامتهـــا في وقفة تحد غاضبة .
ـ اجل . أم لعلك تريدين ان تقولي اننا نقف على ارض مقدسة كما حدث عندما التقينا لأول مرة ؟
ـ اننا نتبع روما اسماً ، ولكنك لم تفهم ولن تفهم . ان كل بقعة من هذه البلاد بمثابة أرض مقدسة بالنسبة لنا . ان كل ما فيها

من هواء وماء وارض ؟ يمتزج بارواحنا . لقد حكمتم هذه البلاد جيلا بعد جيل بيد من حديد . ولكن زمامها سيفلت من ايديكم في يوم ما ، كما يفلت زمام الخيل من يد الفارس الردىء . ان كل من يفد على هذه البلاد من الخارج لا مفر له من أحد مصيرين ، فاما ان يذوب في شعبها ويفقد ذاته ، واما ان يلقى به خارجا ليعود من حيث اتى . اما أنتم معشر الرومان . فلكم من كبريائكم حصنا يحول دون امتزاجكم بالشعب . ولم يبق هناك الا البديل الآخر ، الا وهو ان يلقى بكم خارج هذه البلاد .

ـ من ذا الذى لقنك كل هذا الهراء ؟ !

ـ انه والدى الذى يلقبونه في طول البلاد وعرضها «بالحكيم» . انكم اول من وطأت اقدامهم هذه البلاد من الغرباء عنوة . حتى اللصوص والقرصان من دول اخرى ، لم يتخطوا حدود سواحلنا . انكم اول من اجترأ على معاملتنا هكذا ـ التابع والمتبوع ـ وسياتى بعدكم آخرون ، كما يتنبأ بهذا والدى ، ولكنهم بعد حين سيندمجون في شعبنا جيلا بعد جيل . وسينتج من هذا الخليط شعب قوى سيكون له شأنه . اننا في بداية الطريق ، اما انتم فقد بلغتم منتهاه ! .

ولم يع شيئا مما قالت . لقد كان ماخوذا بروعة حديثها الذى ازداد بغضبها جاذبية واسرا . ان ما تقوله لا يعنيه في كثير او في قليل ، مادامت تبدو امامه هكذا جميلة فاتنة ! .

ـ انك رائعة . انك الجمال كله . ان الحسن قد تجسد في غضبك . وابدع من هذا كله انني اريد الزواج منك ! .

فخطت الى الخلف وهى تقول له :

ـ ماذا دهاك ؟ . النبيل كونستانتيوس بجلالة قدره ، يتنازل ويطلب الزواج من بريطانيـة . أو ترغب في الزواج منى او من جيش والدى ؟ لقد سمعت من القلاقل في بلاد الغال فضلا عما هنالك في سوريا من قتال ! .

ـ لا تأسى على روما ، انها بخير يا سمو الأميرة ، لقد وردت الانباء هذا الصباح ، لقد سقطت تدمر واصبحت الملكة زينوبيا أسيرة للامبراطور بعد أن عفا عنها • وسيعود بها بعد بضعة أشهر الى المدينة الخالدة ، ليراها الشعب ضمن موكبه •

ـ زينوبيا أسيرة ؟ !

وتهالكت على نفسها ، فاسرع اليها يسندها بذراعيه ، ودفنت وجهها في درعه ، ثم رفعت اليه عينين مغرورقتين بالدموع وشفتين تتحركان بما لم يسمع ، ولم يستطع أن يقاوم دعوتهما فاسكتهما بقبلة أودعها كل ما يجيش فى صدره ويفيض به قلبه ••

الجزء الثانى : ٢٧٤ - ٢٨٩ بعد الميلاد

- ١ -

كان الطبيب الافريقى يمشى على أطراف أصابعه فى غرفتها حتى استقر الى جانب فراشها . وكانت هيلينا تحس بوجوده ، ولكنها لم تحرك ساكنا ، وهى مستلقية فى فراشها مغمضة العينين مسترخية فى سكون .. وكانت هيلينا قد شعرت بنفور من هذا الطبيب منذ ان وقع نظرها عليه ، وصارحت زوجها كونستانتيوس بذلك . ولكنه اصر على ان يقوم الطبيب باسيليوس بهذه المهمة لشهرته التى طبقت الآفاق ، حتى انه كان يستدعى الى كل البلاد للاشراف على عمليات الوضع .

وبدا الطبيب يراقب حالتها ويتحسس نبضها ، ولما فتحت عينيها حاول أن يهدىء روعها ويطالبها بأن تعمل من ناحيتها على مساعدته فى مهمته ، بعد أن فقدت الكثير من حيويتها فى الثلاثة أيام الأخيرة !.

ثم نهض مغادرا الغرفة فى سكون . ولما التقى بكونستانتيوس خارج الغرفة ، كانت الابتسامة التى على وجهه مغتصبة وهو يقول له مطمئنا :

ـ سيكون كل شيء على ما يرام . لقد صادفتنى حالات اشد من هذا بكثير .. قليل من الهدوء يا سيدى الضابط ، كلا لا تدخل الآن . فلنتركها تستريح قليلا حتى تستعيد قواها ..

ثم تركه الطبيب وانصرف الى حاله ، وعاد كونستانتيوس الى غرفة مكتبه .

وجلس وحيدا ، مع افكاره ومع آماله وأمانيه . جلس يستعرض فى اطار من طموحه الفرص التى قد تسنح له أو قد تواتيه حتى لا يظل ضابطا عاديا فحسب ، ثم عرج فى تفكيره على هذا المولود الذى ينتظر قدومه ، وتمنى أن يكون ذكرا . وراح يستعيد ما كانت

عليه هيلينا من قبل ؟ وما صارت اليه بعد أن أوشكت أن تصبح أما . انه سيصبح أبا ، وها هم الخدم يتضرعون ويصلون من أجل سيدتهم .

ان لكل منهم طريقته الخاصة في صلاته الخاصة التى يتضرع اليها . عجبا ! . ولكل طقوسه وهكذا تتعدد العبادات والخلاق واحد . انه ليذكر ان هيلينا لم يسبق لها أن تحدثت اليه فى شيء من هذا القبيل . وهذا أفضل . افضل بكثير مما كانت تثرثر به زوجة قائد كاروتيوس عن الأديان ، حتى انهم نسبوا اليها فى وقت ما انها أكثر ميلا نحو دين المسيح الذى صلبه اليهود فى طبرية أو فى الجليل ؟ . انه لا يعرف شيئا عن حقيقة الاسم ــ أو المكان ــ ولقد كانت لهيلينا معتقداتها الخاصة فى كل ما يتعلق بالعبادات والأديان . وهى لم تكن تؤمن الا بوالدها وبكل ما يقوله والدها أو يصدر عنه من حكم . حتى فى مراسم عقد قرانهما ، فانها لم تردد غير ما ردده والدها من دعاء وترانيم .

انه لا يستطيع ان يؤمن بشيء غير القدر ، أو قل هذه اليد التى تنسج خيوط المصير لكل البشر . ومهما يكن من امر ذلك كله، فانه لا يعنيه فى هذه اللحظة بالذات الا أن يرزق بولد : ولد قوى سليم يخلفه فى مكانته وفى مركزه الضخم الذى يعد نفسه له . وليكن ذلك بعد ثلاثين عاما أو أربعين ، فلا داعى للعجلة .. كل شيء مرهون بوقته .

وأقبلت عليه فيرجينيا ممتقعة الوجه تسأل عن الطبيب باسيليوس وتخطره بأن آلام الوضع قد بدأت . فنهض مسرعا الى غرفة زوجته ليراها مستلقية فى فراشها وقد اختلج وجهها ألما وانقبضت اصابع يديها من شدة ما تقاسيه . فقالت له بصوت جاف لا نبرات فيه :

ــ لم يحن الوقت بعد .. أن أمامى ساعات وساعات .

ووجد كونستانتيوس نفسه يرسل كلاما لم يكن ليفهم له معنى حتى اقبل الطبيب واضطلع بمهمته . ولاحظ كونستانتيوس أن الرجل كان قلقا مضطربا .

وانتصف الليل دون أن يتمكن الطبيب من التوفيق فى مهمته ، واستبد القلق بالزوج وبجميع الحاضرين . ونهر كونستانتيوس الطبيب مهددا متوعدا ، وعاود هذا جهوده متوسلا لهيلينا أن تساعده وتستجمع كل ما استطاعت من قوة . واستمر الحال كذلك حتى الساعة الرابعة صباحا دون جدوى . وركع الزوج الى جانب فراش زوجته يتضرع ويبتهل الى قوى القدر الخفية ، ووقف الحاضرون من الخدم يصلون من أجل سيدتهم ، التى كانت مستلقية على فراشها لا حراك بها ، حتى أنها لم تسمع نداء زوجها المتلهف لكى ترنو اليه بعينيها على الأقل .

وفجأة سمع الحاضرون هزيم الرعد داويا يهز أركان المكان . وبالرغم من ذلك ، لم تتحرك الأميرة هيلينا فى فراشها ولم يبد منها ما يدل على أنها تسمع وتعى .

ثم تكرر هزيم الرعد وهطلت الأمطار واكفهر الجو . وفى فترة سكون هدأت فيها أصوات الطبيعة الغاضبة ، بلغت آذان المجتمعين حول الفراش أصوات حوافر الخيل مقبلة فى اتجاه القصر . وأقبل أحد الخدم مسرعا ليعلن قدوم زائر عظيم . وما كاد ينتهى الخادم من قوله ، حتى دخل الغرفة الملك الوالد الذى اتجه الى فراش ابنته وتأملها ، ثم استدار لسائر الحاضرين وسألهم فى صوت امبراطورى آمر أن يتركوه مع ابنته بمفردهما . ولما حاول كونستانتيوس أن يتلكأ ، أمره الملك بأن يطيعه وينسحب مع الطبيب والآخرين . فصدع بما أمر ، وانحنى محييا وغادر الغرفة مع الطبيب .

وما أن خلا له الجو ، حتى اتجه الملك كويل الى فراش هيلينا ، ومال عليها يمسح بيده على جبينها وعلى عينيها . ففتحت عينيها واستعادت وعيها . وما أن رأت والدها يحنو عليها ، حتى ابتسمت له وبادلها ابتسامتها قائلا :

ــ هيا انهضى يا بنيتى !

ــ لا أستطيع يا أبت ، لا أستطيع !

ــ قلت لك ، انهضى !

فنهضت دون أن يساعدها فى ذلك . وامرها بان تتقدم الى حيث يقف . وكانت كلما تقدمت نحوه خطوة تراه يبتعد عنها اخرى ، فانت أنين الموجع قائلة :

ــ ساقاى يا أبتاه ، ساقاى .. انتى ...

ــ تقدمى نحوى ، تقدمى .

فمشت على وهن حتى بلغت المنضدة الكبيرة فى الطرف الآخر من الحجرة .

والقى الملك بكل ما على المنضدة ارضا ، وامرها بأن تستلقى عليها . فاطاعته ، ولكنه اضطر ان يعاونها فى هذه المرة . وبعد أن مر بيده على صدرها مباركا اياها شعرت براحة لم تشعر بها منذ أيام وليال . ثم أمرها بأن تنهض واقفة على المنضدة . فصدعت بما امرت به . ولكنها ترنحت قليلا ، وعاودتها آلامها ، وشعرت بأن ساقيها لا تقويان على حملها . وسمعته يأمرها بان تنثنى الى الخلف ، بعد أن دار دورة كاملة وأصبح خلفها . ولما لاحظ ترددها ، استحثها على أن تلقى بثقلها كله على ذراعيه مهدئا من روعها . ثم دفعها الى الأمام بقوة وعنف لم تستطع معهما أن تكتم صرختها التى اطلقتها مدوية ، جمد لها الدم فى عروق المترقبين لحظة الخلاص فى الخارج . واستدار بعد ذلك ليصبح فى مواجهتها وصرخ فيها قائلا :

ــ تمالكى نفسك يا ايلين ، انك من دم ملكى . هيا اقفزى !

فتاملت ارضية الحجرة ، وخيل اليها أنها بعيدة سحيقة الغور . فدارت بها رأسها ورفعت ذراعيها فى الهواء ضاحكة ، والقت بنفسها بين ذراعيه . ولكنه كان قد تخلى عنها فى اللحظة المناسبة ليتركها تسقط على الأرض بكل ثقلها على قدميها ، وصرخت من شدة الالم ، وسمعت صرخة أخرى طغت على صرختها ، صرخة الفرح والنصر صادرة من والدها ، وهو يصيح قائلا :

ــ ادخلوا جميعا !

ثم فقدت وعيها بعد ذلك ولم تدر من أمر نفسها شيئا .

ولما استعادت وعيها ، رأت أول ما رأت وجه كونستانتيوس حانيا عليها فى ترقب وقلق . ولكنها وجدت نفسها تتحول عنه بقوة سحرية الى الطفل الراقد فى مهده بجوارها . ووقع نظرها بعد ذلك على والدها الملك جالسا فى الناحية الأخرى من المهد يتأمل الطفل فى سكون وصمت . وكانت أشعة الشمس قد بدأت تتسرب الى الغرفة حاملة معها تباشير الصباح .

ـ اريد ان أرى ولدى ، الى بولدى !.

فقام والدها بحمل الطفل بين لفافاته فى عناية فائقة ، وهو يعجب فى نفسه من انها حددت جنسه دون أن يخبرها بهذا احد ! ثم قال لها وهو يودعه الى جوارها برفق :

ـ لقد ولد مع شروق الشمس . اى اسم ستختارين له ؟!

فسارع كونستانتيوس بالاجابة قائلا :

ـ قسطنطين !

فضحك الملك معقبا :

ـ قسطنطين ، كونستانتيوس الصغير . جميل أن يسمى الولد باسم مشتق من اسم والده ، وان كنت أرى انه سيكون اعظم شأنا من والده !

ولما هم الضابط الرومانى بالتعليق على ما سمع ، وضعت هيلينا يدها الرقيقة على ذراعه وهى تحدق النظر فى وجه والدها وقد تعلقت عيناها بعينيه . واستطرد الملك قائلا :

ـ انه سيملك كل أرض تطؤها قدماه . انه سيكون مصدر غبطة لوالدته وموت لابنه ، وانه سيعيش حتى يرى شجرة الحياة !

ـ ٢ ـ

ـ ارفع درعك الى أعلى ـ أعلى من هذا المستوى ـ أعلى !.. هكذا يجب أن يكون ارتفاع الدرع . العينان فقط هما اللتان يجب أن تكونا أعلى مستوى من حافة درعك ، حتى اذا ما امطرك العدو

بسهامه لن تضطر لرفع درعك ـ ولن يكون عليك حينئذ الا أن تحنى راسك قليلا فتسلم هكذا ـ أرأيت ! ؟

بذلك كان يصدر الضابط تعليماته الى الصبى .

ـ اننى لن آفعل هذا ابدا .

قالها الصبى غاضبا :

ـ ان العدو سيعتقد انني أخشاه !..

ـ انني اقنك خير أساليب القتال !

ـ اذا كنت تعتقد ذلك فكن مستعدا ، لاننى ساهاجمك !

ـ ان العدو لا يعلن خصمه بأنه سيهاجمه . انه يجب ان يأخذه على غرة !

ولم يترك الضابط فرصة للصبى الغاضب الذى اندفع نحوه شاهرا سلاحه ، وعالجه برفق حتى قهره . وحاول الصبى أن يعيد الكرة بعد أن سمح له الضابط بالتقاط سلاحه قائلا :

ـ من يا ترى علمك هذه الأساليب غير السليمة يا قسطنطين؟ لست أنا على الأقل . فلتقاتل كروماني لا كهمجي !.

وكان يجلس فى الشرفة المطلة على الساحة شخصان يتأملان كل ما يجرى فى سكون واعجاب . وعلق كونستانتيوس على ذلك قائلا لزوجته :

ـ ان فاسيليس يعرف واجبه خير المعرفة !

ـ اعرف هذا .. ان ما يقلقنى هو قسطنطين واندفاعه ، ان حدة طباعه ستسبب له المتاعب فى يوم ما .. ها هو ذا يعود لمهاجمة الضابط !

وابتسم كونستانتيوس راضيا قرير العين .. أنه اختبار فاسيليس ليكون مدربا عسكريا لولده : اختاره بعد أن أبدت هيلينا رغبتها فى أن ينشأ ولدها نشأة عسكرية . يالها من أم مثالية . انها اكثر رومانية من كثيرات الأمهات الرومانيات أصلا .

ودار القتال بين الصبى وبين معلمه العسكرى حتى انتهى بهزيمة الأول واصابته بجرح دام . فتحركت امه فى مقعدها قلقة دون أن تفزع لما شاهدته ، وقال الأب :

ـ انه سيستفيد من ذلك . لقد لقنه الضابط درسا !
ـ انه لا يبكى .. انه جدير بان يكون ابن القائد كونستانتيوس
واقبل أستاذ الصبى ، الاغريقى ، يسعى ليؤكد اهمية دوره فى تربية الصبى قائلا :

ـ سيدى .. ان قسطنطين قد تأخر عن درس الآداب . وها هو ذا قد جرح ، فكيف يستطيع بعد ذلك أن يعى دروسه ؟

فأجابه القائد كونستانتيوس بأن تدريبات الصبى العسكرية أكثر اهمية من دروس الأدب ، وانضمت اليه زوجته فى هذا .. وألح الأستاذ الاغريقى موضحا أنه مسئول عن تعليم الصبى وانه بحاجة لتأييد والديه ، كما أن صبيا فى الثالثة عشرة من عمره لايجب ان يترك هكذا لنزواته العسكرية .
وصرفت هيلينا الفيلسوف الاغريقى من حضرتها قائلة :

ـ لست احب لابنى آن يصبح عالما .. اننى أريده ان يصبح جنديا كوالده !

وبعد برهة وجيزة اقبل الصبي ومعلمه العسكرى على الزوجين الجالسين فى الشرفة . وبعد أن أدى الضابط التحية لقائده قال:
ـ لقد انتهى تدريب اليوم يا سيدى .
فأومأ كونستانتيوس برأسه قائلا :

ـ لقد رأيت بنفسى تدريب اليوم ، وأنا جد مقتنع به راض عنه . اذهب الى روفوس بالمطبخ وقل له انك موفد من لدى .
وكان روفوس ، المراسلة السابق لكونستانتيوس ، قد أصبح مديرا لمنزله مسئولا عنه .

سألت هيلينا ولدها قائلة :
ـ هل أنت متعب يا قسطنطين ؟!
ـ قليلا ، ليس الى هذا الحد الذى تتصورين !

ـ اذا لم يكن بك رغبة فى دراسة الأدب اليوم ، فلا ضير من هذا . ويمكنك أن تصحبنا فى نزهتنا .
واقبل الصبى على والدته معانقا وهو يقول :

ـ انك تستطيعين دائما ان تقرئى افكارى يا أماه ! .
فعقب والده ضاحكا :
ـ وانها معى لكذلك !.
وفى طريقهم الى المنزل ، قابلهم رئيس الخدم لاهث الأنفاس ممتقع الوجه . فقال له كونستانتيوس :
ماذا بك يا رجل ؟ هل انت مريض ؟
ـ مبعوث امبراطورى يا سيدى . الحاكم اليكتوس قادم لمقابلتك !.
فعقد كونستانتيوس ما بين حاجبيه غير ان نبرات صوته لم تنم عما يختلج فى نفسه .
ـ دعه يدخل .
وبعد أن خرج رئيس الخدم تبادل كل من الزوج والزوجة نظرة خاطفة .
قال كونستانتيوس على اثرها :
ـ ان مثل هذه المقابلة كانت تعنى مالايسر فى الماضى.اما فى عهد دقلديانوس فهى شىء آخر ... فلسنا فى عهد نيرون أو..!
ـ هل لك معرفة بالمبعوث ؟
ـ اليكتوس .. لا اظن . اعتقد اننى مضطر للتخلف هنا ، اذهبى انت مع قسطنطين . لعله حضر فى طلب المزيد من القوات!.
ـ ولماذا لا ابقى معك ؟
ـ كلا . لا مانع من استقبالك له ثم تنصرفين بعد ذلك . اعتقد ان هذا افضل !.
وعاد رئيس الخدم يتبعه المبعوث الأمبراطورى . وكان اليكتوس رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، يحمل بينهما راسا قريبة الشبه براس الطيور الجارحة . وشعرت هيلينا بالنفورمنه بمجرد ان وقع نظرها عليه . وقالت بعد تبادل عبارات المجاملة :
ـ ارجو أن تأذن لى ولولدى بالانصراف حتى تتفرغا لما قدمت من أجله .
وانحنى المبعوث تحية واحتراما . وغادرت القاعه يتبعها ولدها قسطنطين .

وبعد أن خلت القاعة الا منهما ، سلم المبعوث الرسالة الامبراطورية لكونستانتيوس الذى ظل واقفا حتى ينتهى من تلاوتها كما تقضى بذلك التقاليد . وظل المبعوث يحدجه بنظراته لعله يتبين من ملامح وجهه رد فعل الرسالة فى نفسه . وكانت الرسالة بمثابة منشور دورى من الامبراطور قلديانوس الى قواده وجنوده وحكام الأقاليم ، يتضمن ارادة الامبراطور التى تنازلت بالانعام على القيصر مكسيميانوس بلقب امبراطور تحت اسم أغسطس ، وانه سيصبح الحاكم الأعلى لايطاليا وافريقيا واسبانيا وفرنسا (بلاد الغال) وبريطانيا ، بينما يحتفظ دقلديانوس بحكمه لبلاد تركيا ومصر وآسيا . وعلى كل القواد والقوات فى البلد التى اصبحت تحت سيطرة ماكسيمانوس ان يقسموا يمين الولاء لامبراطورهم الجديد .

وبعد أن فرغ كونستانتيوس من قراءة الخطاب ، قال بصوت هادىء :

ـ يا لها من أنباء . ان جلالة الامبراطور قد حذا حذو ماركوس انطونيوس (مارك انطوان) . ان فى ذلك الخير كل الخير للامبراطورية .

ـ هذا صحيح .

ـ وانه اختار لهذا خير من يصلح لهذا المنصب السامى .

ـ اجل . اجل .

ـ سأصدر أوامرى الى قواتى بالتجمع لهذه المناسبة . واظن انك ترغب فى حضور هذا الاستعراض ، مالم تحل واجباتك دون ذلك ! .

ـ قبل أن أبلغك بقرارى ، أحب أن أسلمك رسالة امبراطورية أخرى ! .

ـ رسالة أخرى ؟ !

ـ اليك الرسالة ! .

وانحنى مرة أخرى وهو يتسلم الرسالة الثانية . واسرع يفضها متلهفا لكى يعرف مابها . وقراها ليجد انها من ماكسيمانيوس ، امبراطوره الجديد الذى لم يضيع وقتا فى مباشرته لمهام منصبه

السامى • وتضمنت الرسالة دعوته لحضور مؤتمره فى روما للتشاور فى امور عاجلة • وترك له الامبراطور اختيار من ينوب عنه فى قيادة قواته أثناء غيابه •

ــ متى سترحل الى روما ؟

بهذا ساله المبعوث بمجرد ان طوى القـــائد كونستانتيوس الرسالة ، دلالة على أنه فرغ من تلاوتها •

بمجرد أداء القوات للقسم الجديد ، كما أعتقد •

ــ ان جلالة الامبراطور لن يرضى عن أى تأخير • يحسن بك أن تعود على ظهر السفينة « تيتان » انها من السفن السريعة •

ــ فليكن • سأرحل غدا وأرجوك أن تقبل ضيافتى الليلة •

ــ شكرا • ترى من سيحل محلك فى غيابك ؟

ــ الضابط جايوس فاليريوس •

ــ وهل يستطيع ان يقود هـــذا العـــدد الكبير من الضباط والجنود ؟

ــ لو لم يكن كذلك لما اخترته لهذه المأمورية ! •

ــ هل تسمح بتقديمه الى ؟

ــ ستراه الليلة ساعة تناول العشاء •

- ٣ -

« ان مراسم الاحتفال الجديد » ، بهذا بدأ كبير أمناء الامبراطورية أصدار تعليماته بعصبية ، الاحتفال الذى سيشرفه صاحبا الجلالة الامبراطوران دقلديانوس وماكسيميانوس •

ــ أطال الله بقاءهما وأيد حكمهما ــ ستكون كما يلى :

ستدخل القاعة الداخلية فى أعقابى ، حيث أقدمك الى رئيس الحرس الامبراطورى • ثم سننتقل بعد ذلك الى القاعة المستديرة حيث نجد غيرنا من الزوار • وبعـــد ذلك نرتقى الدرج الى غرفة الاجتماع ، ماهو اسمك الذى ذكرته لى ؟

ــ القائد كونستانتيوس •

ــ صحيح ، صحيح .. ان اسمك مدون هنا •

ثم نشر كبير الأمناء بين يديه صفحة بها مئات الأسماء :

ـ ان مكانك بين القائد باسباتوس والقائد تيرينتيوس .. وسنقوم ...

ـ اولوس تيرينتيوس ؟ . من الفيلق الرابع عشر ؟ !

ـ اجل ، اجل ، ولا أحب أن يقاطعنى أحد .. ان مراسم هذا الاحتفال معقدة الى حد ما ، ولدى الكثير مما يجب أن أقوم به .. ماذا كنت اقول ؟ . آه ، سنقوم بدخول قاعة الاجتماع فى صف واحد حيث نجد كبير الياوران الذى سيتولى تقديم الوافدين بعضهم الى بعض . واحب ان الفت نظرك الى نقطة فى غاية الأهمية .. فبمجرد ان يشرف جلالة الامبراطور قاعة الاجتماع ، يجب ان تكب على الأرض ساجدا !

ولم يصدق كونستانتيوس ما سمعته اذناه . او يسجد قواد الرومان كالارقاء والعبيد ؟ . ماذا نزل بروما والى اى منحدر تنحدر ؟ ! لقد قيل الكثير عن فساد جهاز الحكم فى روما وتناقل الضباط فى دوائر الجيش غير القليل من وقائع الرشوة والانحلال، ولكن احدا ما لم يكن يتصور أن يبلغ الاسفاف بهؤلاء الاباطرة هذا الحد الذى يذل قواد الجيش وضباطه الكبار ، فيطلب منهم أن يسجدوا ويكبوا بجباههم على الأرض .

ولم يعر كونستانتيوس ، كبير الأمناء انتباها فيما كان يتلوه من اوامر اخرى ، وقد ضاق ذرعا بما يسمع :

ـ اننى لن استطيع ان اعى كل ذلك فى درس واحد . لقد قدمت الى هنا لاقدم تقريرى لا لأستمع الى دروس كيفية الانحناء والركوع !.

ـ على رسلك يا سيدى القائد ، ولكن لا تلومن الا نفسك بعد ذلك ، اذا ما تعقدت الأمور وساء الموقف . لقد قمت بما هو مفروض على بحكم منصبى . ان جلالة الامبراطور لا يتساهل دائما.

ـ لم اسمع عن ماكسيميانيوس انه لين الجانب . هيا بنا نبدأ المراسم . القاعة الداخلية اولا ، أليس كذلك ؟

واستقبله رئيس الحرس مستفسرا عن الاحوال فى بريطانيا ، دون أن ينتظر اجابة منه ، بل ولاه ظهره وتقدمه الى القاعة المستديرة ، حيث وجد بها حشدا من الناس ، ملأت اصواتهم جو

المكان ضوضاء وطنينا . وتبين كونستانتيوس وجه تيرنتيوس بين الحاضرين ، فاخترق صفوف الواقفين حتى تمكن من مصافحته وتحيته قائلا :

ـ لقد طال بنا الفراق ، انك لم تتغير كثيرا . ما هى اخبار الفيلق الرابع عشر ؟

ـ وانت أيضا لم تتغير كثيرا . كم من الوقت مضى منذ آخر لقاء لنا ؟

ـ الكثير . لقد تزوجت من فتاة بريطانية وأنجبت طفلا أو قل صبيا ، فقد بلغ الثالثة عشرة من عمره .

ـ يسرنى ان اسمع ذلك ، ابعث به الى لالقنه الكثير مما لا يتقنه ابوه .

وضحك مسترسلا :

ـ لقد تعلمت الكثير فى مصر ...

ـ اوبلغت بالأوامر الجديدة .

وقبل أن يجيب ، تلفت فيما حوله ، ولما اطمأن الى ان احدا لم يسمعه قال هامسا :

ـ يا عزيزى ، ان هذه المظاهر هى كل مايضفى عليهم قدسيتهم تلك هى المراسم المتبعة فى الاحتفالات الفارسية .

ـ ترى لمن من الامبراطورين ستكون الصدارة ؟

ـ ليس هذا من شأننا ، لقد اصبحنا من نصيب ماكسيمانيوس .

وضحكا معا ، وتبادلا التعليقات على ما استجد من أوضاع ، وعجبا معا من تلك الأوامر الجديدة التى تفرض عليهم السجود ، وراحا يستعرضان ظروف الامبراطورية ، حتى قطع عليهما حديثهما صوت يدعو الحاضرين للانتباه :

ـ ستصعدون الدرج بترتيب النداء على أسمائكم .

واخذ ينادى الأسماء ، وتقدم كل من سمع اسمه فى صف الاستعراض الطويل .

وكانت قاعة الاجتماع فخمة فسيحة تمج بالضباط ورجال الحرس ، يتوسطها كبير الياوران مشيرا الى كل قادم بأن يتخذ المكان المعين له .

وعلى حين غرة من جميع الحاضرين بالقاعة ، انزاح الستر الموجود فى طرفها الآخر ، وبرز منه رجل ضخم متين البنيان ، قد بدا بوجهه الملتحى وشعره الكث وعنقه الغليظ ، كثور هائج يطل على الجموع برأسه القبيح متفرسا لينتقى فريسته .

وكان لظهوره المفاجىء بمعطفه الداكن الاحمرار ، رد فعل جمد له الحاضرون فى اماكنهم ، واستقر كل فى مكانه ، وقد تعلقت أبصارهم به .. حتى كبير الياوران نفسه ، وقف مبهوتا وكأنه على وشك ان يفقد وعيه . وارعد الامبراطور بصوته الأجش قائلا :

ـ اين هو ماميرتينوس ؟ وأين هو كونستانتيوس ؟ .

ـ هنا يا صاحب الجلالة .

ـ اقتربا منى ! ولينصرف سائر الحاضرين ! .

وتقدم الضابطان من الامبراطور الذى استدار وعاد ليختفى وراء الستر ، وتبعه الضابطان الى الغرفة الداخلية . ومن هذه الغرفة تقدم الامبراطور الى دهليز ومنه الى غرفة أخرى استقر رأى الامبراطور أخيرا على أن يتوقف بهما أمام منضدة قد نشرت عليها خريطة كبيرة وقف حولها بعض الضباط العظام تعرف كونستانتيوس منهم على جاليريوس وفلتينيوس وابن الامبراطور ماكسينتيوس .

وبعد أن رد الامبراطور على القائدين تحيتهما بصورة تبين فيها كونستانتيوس كل سمات الغضب والثورة ، ورأى من وجهه المربد ما أكد له ملاحظته هذه .. ابتدره الامبراطور قائلا :

ـ اذن فأنت القائد كونستانتيوس ! .

قال ذلك بصوت أجش تهتز نبراته غضبا . اذن فقد يعنيك أن تعلم بأن جنوب بريطانيا ، الاقليم التابع لك ، قد احتله الأعداء

ـ ٤ ـ

ومرت برهة قصيرة خيل لكونستانتيوس أن الامبراطور قد فقد صوابه . غير انه تبين من ملامح من يحيطون به من قواد أن الأمر ليس كذلك ، وانه اشد من هذا خطورة وجدية . أى عدو هذا الذى احتل بريطانيا ؟ اهو كوريو قائد الاقليم الشمالى ـ ولكنه

ليس عدوا ، وان كان قد فعل ذلك لكان الامبراطور قد قال بانها ثورة وليست احتلالا .. أو يكون كاروسيوس قائد الأسطول ؟. انه هو كاروسيوس وحسبه هذا .

ـ أهو كاروسيوس يا مولاى ؟

وظل كونستانتيوس رابط الجأش متمالكا لزمام تفكيره مرددا بينه وبين نفسه :

ـ انه كاروسيوس الرجل الذى كان موضع شك الامبراطور ، والذى احتل مكان الصدارة ممن أدرجهم الامبراطور فى القائمة السوداء . هذا الرجل الذى كان يعد الامبراطور العدة لمهاجمته قد بادر هو وسبق الامبراطور الى ذلك وأسرع بأسطوله الى بريطانيا واحتلها . أو كان اقصاؤه من بريطانيا عفوا دون تدبير ؟ أو يمكن أن يكون فى الأمر مادس على الامبراطور حتى يأتى أمر استدعائه فى الوقت المناسب ؟

وبينما كان كونستانتيوس غارقا فى تأملاته هذه ، كان الامبراطور يزداد ثورة وهياجا ، ضاربا المنضدة بقبضة يده مهددا متوعدا فتقدم كونستانتيوس خطوة الى الامام منتصب القامة ، فقال له الامبراطور :

ـ ماذا تراك قائلا ؟

ـ لقد استدعيت بناء على أمر من جلالتكم . وأبحرت بعد أن تلقيت هذا الأمر فورا على ظهر السفينة التى أمرتم بها جلالتكم وقد قطعت بى هذه السفينة المسافة فى ثلاثة وستين يوما ..

ـ كأنك تريد أن تلقى باللوم على عاتقى . ان هذا القائد لا تنقصه الشجاعة !

ـ وانى لأرجو أن أعيد للامبراطورية ما فقدته .

ـ وانى لك ان تعلم بما وقع هنا أيها القائد ؟

ـ اننى لا أعرف أكثر مما أحطتنى به علما . وما دام المجرم هو كاروسيوس : فانى لمستطيع أن أتصور كيف فعل ذلك .

ـ دعنا نسمع ما لديك من أفكار وآراء قيمة .

ـ هل لى أن أسأل واحدا قبل ان أدلى بما لدى ؟

ـ لا مانع . أوجز فى القول .

ـ هل كلفت الليكتوس بتسليمى رسالتين من جلالتكم ؟

ـ لقد ارسلت فى طلبك فعلا . ولكننى لا اعرف من كان الرسول الذى كلف بهذه المامورية .

ثم سأل احد قواده قائلا :

ـ من الذى حمل رسالتى اليه ؟ !

ـ الضابط سترابونيوس . ان الليكتوس من رجال كاروسيوس يا مولاى ! .

فأومأ كونستانتيوس برأسه قائلا :

ـ لقد دار بخلدى هذا . وهذا يفسر سر تعجله لسفرى .. لقد أوهمنى باننى ان تاخرت اثرت غضبك ، حتى انه لم يوافق على تخلفى يومين حتى تؤدى القوات يمين الولاء لجلالتكم . ليس من شك ان كاروسيوس قد استطاع ان يمنع سترابونيوس من مواصلة مهمته عندما وصل الى جيسورياكوم فى طريقه الى بريطانيا . لقد كان كاروسيوس غير واثق من نوايا الامبراطور بالنسبة لشخصه . ولكنه لم يستطع أن يتثبت منها . فما كان منه الا أن انتهز الفرصة لابعاد حاكم القطاع الجنوبى فى بريطانيا ليخلو له الجو . وما ان اطمأن لابحارى حتى وجه ضربته التى أعد لها ..

ـ هذا ما كان فعلا . كيف عرفت كل ذلك ؟

ـ فضلا عما ذكرته لمولاى من مقدمات ، كان المد فى صالحه بعد ابحارى ، وهو من الأمور التى يجب على كل راغب فى غزو بريطانيا ان يحسب لها الف حساب . واذا سمح لى مولاى عرضت على مسامعه الخطة التى أرى انها تكفل لنا بلوغ ما تريد .

وعرض كونستانتيوس على الامبراطور خطته التى صادفت لديه قبولا ، غير انه تبين من اقوال قائده ان الشواطىء الجنوبية لبريطانيا كانت أضعف المنافذ الى داخل هذه البلاد ، فعاد راعدا وهو يصيح

ـ أيها القائد المكلف بحماية هذا القطاع ، كيف تركت هذه الجهات ضعيفة فى مقاومتها حتى تمكن كاروسيوس من غزوها واقتحامها بهذه السهولة ؟

وفى هدوء الواثق من نفسه أجاب كونستانتيوس :

ـ لطالما ارسلت بالاحتجاج تلو الآخر ، على اضعاف جيش

الاحتلال وتخفيض عدد قواته . ولقـــد بلغت تلك الاحتجاجات احد عشر احتجاجا فى السنوات الماضية .

فلم يجد القائد الأعلى ، ماميرتينوس ، بدا من التدخل قائلا :

ـ اننا نتلقى الكثير من هذه الطلبات يامولاى . فاذا ما استجبنا لـكل طالب منها ، لما استطعنا أن نستفيد بما نريده من قوات عندما يقتضى الأمر هذا .. ثم انه لم يكن هناك من الأسباب مايدعو لتقوية الجبهة فى بريطانيا ..

فقال الامبراطور متهكما :

ـ وهذا ما اثبتته الحوادث فعلا !

وعقب كونستانتيوس قائلا :

ـ ثم ان الغزو تم بمعرفة الأسطول الرومانى المفروض فيه أن يحمى شواطىء بريطانيا ويصد اى اعتداء عليها !

ـ ان انتصارك أمر موثوق به . يكفى هذا الآن . يمكنك أن تتناول طعامك معنا يا كونستانتيوس ، وأياكم من أن يطرق احدكم موضوع بريطانيا خلال النصف ساعة القادم .

ولم يكن كونستانتيوس قد تنبه الى تلك المائدة المعدة فى طرف الغرفة الآخر . كما أنه لم يكن قد لاحظ السيدتين الجالستين اليها . وعاد الامبراطور ليتخذ مكانه من المائدة وتبعه القواد ، واقبل الخدم يقومون على خدمتهم وتقديم صحاف الطعام واحدا بعد الآخر ، وكان مقعد كونستانتيوس فى مواجهة كبرى السيدتين وقدمه القائد العام الذى كان يجلس الى جانبه اليها وعرفه بها . انها تيودورا ابنة الامبراطور ، أو بمعنى ادق ابنة زوجته . وكانت رشيقة فاتنة جذابة .

وتساءل فيما بينه وبين نفسه ، عما اذا كان لزاما عليه أن يتجاذب معها أطراف الحديث من عدمه . ولكنها سرعان ما جنبته هذه الحيرة بقولها :

ـ لعلك فوجئت بهذا الذى وقع فى بريطانيا ؟ لا تحمل نفسك عناء الرد اذا كنت لا ترغب فى ذلك ! .

ـ انك فى غاية المجاملة يا سيدتى ! .

وفى الحق انه كان بحاجة الى أن يسارع بالعودة الى بريطانيا ولكنه كان بحاجة الى ان يخلو الى نفســه ليتدبر امره . ودار بخلده أن ينهض مستاذنا ، مطالبا بتزويده بالسفن والقوات اللازمة لمهمته الشاقة العسيرة .

وعندئذ سمع الفتاة الصغيرة التى كانت تجلس بجوار تيودورا والتى لم تتجاوز السابعة من عمرها ، تقول له :

ـ أنا فاوستا ! .

ولما وجدته لا يهتم بها لانشغاله بما كان يفكر فيه عادت تقول له محتدة :

ـ انني شخصية لها اهميتها ، الست ترى ذلك ؟ انني ساكون امبراطورة فى يوم من الأيام !!

فقالت لها تيودورا وهى تتأمل كونستانتيوس معتذرة :

ـ صه يا عزيزتى .

فقالت الفتاة الصغيرة محتجة :

ـ اليست هى الحقيقة ؟ انك لتعرفين هــذا . ساصبح امبراطورة ، وعندئذ سيكون هذا هو الرجل زوجى .

فضحكت تيودورا ولم تعلق بشىء . وهنا تساءل الامبراطور عما قالته الصغيرة وأضحك تيودورا . فأعادت تيودورا على مسامع الأمبراطور ما قالته فاوستا . فابتسم الأمبراطور وهو يرمق حاكم جنوب بريطانيا بنظرة تقدير . وعندئذ اجاب كونستانتيوس على سؤال الصغيرة قائلا :

ـ عندما تشبين عن الطوق ساكون قد تقدمت فى العمر ، فضلاً عن أننى رجل متزوج كما تعرفين .

ـ لا عليك من هذا كله .

وعندئذ ضحك جميع الحاضرين ، باستثناء تيودورا التى لم تشاركهم ضحكهم . بل ولاحظ كونستانتيوس مسحة من الخوف تكسو وجهها القاتم . ومالت الى الأمام وهى تسأله :

ـ هل تقيم زوجتك فى بريطانيا ؟

ـ اجل . زوجتى وابنى أيضا .

فأشاحت عنه بوجهها . ولما عادت لتواجهه كانت عيناها مغرورقتين بالدموع . وسمعها تقول له :
ـ يا للرجل المسكين ! يا له من أمر شديد الوقع على نفسك !
فحملق كونستانتيوس فى وجهها ، ولاحظ أن جاليريوس الجالس الى جانبها يبتسم فى وجهه .
اما الامبراطور فكان منهمكا فى التهام طعامه . ولم يكن بوسع أحد ان يعرف ما يجول بخاطره .

ـ ٥ ـ

قالت هيلينا وهى تستحث الخطى :
ـ سنصل الى غابتنا عما قريب ، لقد اقتربنا من المنزل .
فرفع قسطنطين رأسه فى شمم قائلا :
ـ لست متعبا يا أماه .
فابتسم الضابط فافونيوس أو فاسيليوس كما كان يحب أن يسميه قائده ، لقد كان جد متعب ، هو وروفوس وشرذمة من الجنود الذين انضموا اليهم . هذه هى الروح التى يجب أن يتحلى بها ابن كونستانتيوس وربيب فافونيوس فى التدريب العسكرى .
وبعد أن أصدر الضابط أمره للجنود بتسوية صفهم ، ركض بجواده الى حيث لحق بهيلينا قائلا :
ـ هل تسمحين بكلمة يا سيدتى ؟
ـ هات ما عندك . ترى ماذا تريد أن تقول ؟
ـ شىء مما تعلمته من جندى عظيم منذ عدة أعوام . اذا ماكنت ممتطية جوادك فى وقت الحرب ، يحسن الا تفكرى فى شىء ، يجب الا تجهدى ذهنك بالتفكير ، حتى يكون مستعدا للتفكير عندما يجد الجد .
ـ شكرا يا فافونيوس . ساجتهد ان اعمل بنصيحتك .
واشتم فى مسيرهم رائحة الدخان تهب عليهم من الشمال الغربى . ترى هل اقتربوا من كوبل كاسترا ؟ لحسن حظهم انهم

يسيرون بين أشجار الغابات التي تحجبهم عن الأنظار ، ان السير في مكان مكشوف غير مستحب في ايام الحرب والنزال .

ينصحها الضابط بالا تفكر ! وكيف لا تفكر ؟ او يمكنها ان تنسى منظر دوربوفيكس رئيس الخدم ، وهو يصعد الدرج ركضا وقد سالت الدماء من عنقه . وما ان وقع نظره عليها حتى توقف محاولا ان يتمالك نفسه محييا وهو يقول لها :

سيدتي : لعله من الافضل ان .. ثم تهاوى الى الأرض جثة هامدة . هل يمكن الا تفكر في ذلك ؟ والا تستعرض ما كان بعد ذلك عندما عادت مسرعة الى داخل البيت طالبة النجدة ، باحثة عن ولدها قسطنطين الذى كان يتلقى تدريباته العسكرية مع اقافونيوس . وبعد ذلك اختلط الحابل بالنابل وسادت الفوضى اركان البيت . هل يمكن ان تنسى اللحظة الحاسمة في حياتها ؟ عندما اقبل اليكتوس ومعه ستة من الرجال . وهناك ، في المدخل الخلفي للبيت وقف يبتسم لها محييا بكل أدب واحترام قبل أن يلقي على مسامعها ، وعلى مسامع من كان يقف معها ، انباء استيلاء كاروسيوس على لندنيوم وتسليمها بدون مقاومة ، وتقدم قواته البالغ عددها مائة الف مقاتل في قطار جنوب بريطانيا . ثم راح يطنب في صفات كاروسيوس ، وكيف سيجعل من بريطانيا دولة مستقلة عن روما . وعلى هذا النمط من الحديث انهى خطابه اليهم وهو يبتسم ابتسامته الصفراء .

وعندما وقف قسطنطين يصغى اليه قلقا نافد الصبر . وما ان توقف اليكتوس ، حتى اسرع الصبى قائلا :

– ترى ما هو راى والدى فى كل ذلك ؟

قطرقه قافونيوس بذراعه قائلا :

– مهلا ايها الجندى .

وبعدها عادت هيلينا الى داخل المنزل حيث انفردت باليكتوس واستطاعت أن تواجهه بما يدور بخلدها .

– انها حركة عصيان ضد الامبراطور ، انكم ستدفعون ثمن فعلتكم الشنعاء غاليا .

فضحك ضحكته الصفراء قائلا :



ـ لست أعرف الا امبراطورا واحدا اعترف به ؟

ـ انه كاروسيوس ، اعظم رجال عصره . وما ماكسيميانوس ودقلديانوس الا حثالة القوم اذا ما قورنا به .

ـ لقد تحدثت فيما تحدثت به عما سنراه من خير على يدى امبراطورك المزعوم . وارى ان هـذه الايام قد بدات فعلا . بدات بقتل احد رجالك لرئيس خدمى !!

فاعتذر لها الليكتوس بأن ذلك كان خطأ غير مقصـود ، وبأن ما حدث من النتائج الحتمية لحالة الحرب التى تمر بها البلاد . واكد لها أن شيئا من ذلك لن يتـكرر ، وانه يضمن لها ولكل من يلوذ بها السلامة والامان ، مادامت لا تعادى الحـكومة الجديدة . وتعهد بأن يكفل لها حيـاة رغدة هادئة . وما عليهـا الا أن تذكر جميل صنعه بابعاده لزوجها عن البلاد فى الوقت المناسب ليجنبه ما كان سيتعرض له من اخطار .

فغلت الدماء فى عروقها ، ولم تشعر الا بيدها ترتفع وتهوى بها على صدغه ، مما أثاره ، فتقدم منها وقبض على كتفيها بعنف ، وقد اتقدت عيناه شررا .

وحاولت أن تتخلص من قبضـتيه ، وفجـأة رأت الضـابط قاقونيوس يكيل له اللكمات فترنح المبعوث الامبراطورى واستـل سيفه من غمده . فقال له قاقونيوس :

ـ مرحى ، مرحى . نحن بحاجة الى شىء من الترفيه .

واسرع يستل سيفه من غمده هو الآخر .

وكان الليكتوس يصرخ مناديا على رجاله بأعلى صوته ، فقال له الضابط :

ـ لا تتعب نفسك . لقد اتخذنا حذرنا من رجالك .. لم يبق الا انت وانا وجها لوجه فهيا استعد .

ودار القتال بين الرجلين ، وكان الليكتوس مدافعا أكثر منه مهاجما . وبعد برهة وجيزة دخل قسطنطين القاعة ، والدماء تنزف من جرح فى صدغه ، وبيده سيف يلوح به مهددا . ورآه قاقونيوس بطرف عينه فقال له :

ـ راقب ما يجرى فقط ولا تتدخل . هل أمنتم جانب الرجال الستة ؟

ـ أجل . دعنى اشترك معك . ارجوك .

ـ ان فى اقتراحك ما يشرفه . دع لى هذا الكلب الحقير !.

ولم يستمر النزال بين المتبارزين طويلا ، حيث عاجل الضابط المبعوث بضربة سيف فى جبهته ، سالت بعدها الدماء على وجهه غزيرة ، فالقى سيفه من يده وسقط على الأرض يتلوى من الألم . والتفت الضابط بعد ذلك الى هيلينا قائلا :

ـ آسف لما حل بالغرفة من فوضى يا سيدتى .

فاجابته هيلينا ضاحكة :

ـ بل شكرا يا قافونيوس .

وهكذا تم اندحار القوة الأولى التى هاجمت منزل حاكم جنوب بريطانيا . فهناك فى الحديقة كان الرجال الستة تحت التحفظ فى حراسة روفوس ، كما كان هناك كثير من الخدم والعبيد فى انتظار أية اشارة من سيدتهم . بعد ان أودعوا الاسرى قبو المنزل .

وما كاد المنتصرون يتعدون بما تحقق لهم من نصر ، حتى اقبل رسول القائد بالنيابة ، جايوس فاليريوس ، بكلمة عاجلة تتضمن نصيحته لهم بالرحيل فورا الى الشمال ليكونوا فى حماية القائد كوزيو ، حاكم القطاع الشمالى .

وقد بلغت اليهم هذه الرسالة فى المساء . وبعد استعراض هيلينا للموقف مع قافونيوس وجدت ان فاليريوس على حق ، وبالذات لان الليكتوس ليس بالرجل العادى ، فقد يقبلون للبحث عنه . كما علمت هيلينا من قافونيوس بأن الليكتوس لم يفارق الحياة بعد ، بالرغم مما نزف منه من دماء غزيرة ، لانه تعمد الا يصيبه فى مقتل .

وقررت هيلينا ان ترحل عملا بمشورة نائب القائد ، ولكن الى قصر والدها وليس الى القطاع الشمالى . كما أشار عليها بذلك . وامرت باعداد الجياد وما هم بحاجة اليه من اسلحة ومؤن . وقررت ان تسرح الخدم والعبيد ليذهبوا انى شاءوا ، وان تستبقى روفوس معها فقط .

وصعدت الى غرفتها بالطابق العلوى ، واحضرت بعض الحلى والنقود التى وزعتها على الخدم قائلة :

ــ من الخير لكم ان تذهبوا بعيدا عنى حتى لا ينالكم ما قد اتعرض له من اذى بحكم منصب زوجى . اننا سنلتقى فى يوم ما بعد ان تعود الامور الى نصابها وتستعيد روما مكانتها . ان هذه الحال لن تدوم طويلا .

وبعد نصف ساعة كانوا فوق ظهور جيادهم : هى وقسطنطين وفافونيوس ورفوس ، الذى كان يسحب جوادا آخر خلف جواده محملا بما يحتاجون اليه من مؤن واغطية وغير ذلك مما لا غنى لهم عنه . وكانوا آمنين بعض الشىء ؛ لأنهم اتخذوا من الليل ستارا متجنبين الطرق العامة ومسالك المدن .

وقابلوا فى طريقهم بعد مسيرة بضعة اميال . اثنى عشر جنديا من جنود احدى كتائب الفياق العشرين . وما ان وقع نظر هؤلاء على فافونيوس ورفوس ، حتى هللوا فرحين بهذا اللقاء . وصارحهم فافونيوس بحقيقة الموقف قائلا :

ــ انكم ان اخترتم الانضمام الينا ، كنتم لا محالة من الهالكين ورأى ان تسلموا انفسكم كأسرى الى العدو الخائن حتى تتكشف الامور ، ولكنهم آثروا ان يقيموا على ولائهم لقائدهم ، مهما يكن من امر الاخطار التى يتعرضون لها بقرارهم هذا . وعاد فافونيوس بعد ثلاث ساعات من هذا القرار بعد ان تمكن من ان يدبر لهم اثنى عشر جوادا ..

تابع الركب سيره بعدها فى غابة ترينوفانت فى طريقه الى كويل ـ كاسترا . وفى الطريق سأل الصبى أمه :

ــ اماه . متى سيعود والدى ليطارد هؤلاء الخونة ! ؟

ــ لست ادرى يا ولدى متى سيعود .. كل الذى أعرفه اننى واثقة من عودته !.

ــ انا الآخر واثق من عودته . اننى اتساءل عن موعد عودته ؟ هل سيطول بنا الانتظار شهورا ؟!

ــ من يدرى ؟ دعنا نأمل خيرا !.

من يدرى ؟ ومن يستطيع ان يجزم بشىء ؟ ان كونستانتيوس

الى روما مع الامبراطور . وقد يرى الامبراطور ان يرسل غيره من القواد ويقرر استبقاءه باعتباره مسئولا عما حدث .

وتبينت بعد قليل ، انها تسير بين اشجار البلوط التى يحبها والدها . ووقع نظرها على الصخرة الكبيرة الاثيرة عند والدها ، والتى كان يفضل الجلوس عليها . وراحت تجيل عينيها فى الظلام، لعلها ان تلمح شيئا أبيض ، كما كانت تفعل من قبل .

ورات فافونيوس ، الذى كان يسير فى المقدمة يرفع يده محدقا النظر فيما وقع عليه بصره . وتوقف الركب عن متابعة السير ، الا من هيلينا التى تابعت سيرها ، مشيرة الى قسطنطين ان يحذو حذوها . وسمعت فافونيوس يهمس قائلا :

ــ ان احدا ما يجلس هناك . واومات براسها موافقة مندفعة بجوادها الى حيث كان يجلس والدها .

ــ مرحبا يابنتى مرحبا بحفيدى .

ونهض هيلارى ، تابعه ، الذى كان يجلس عند قدميه ، واقفا وانحنى محييا سيدته .

وأسرعت بالترجل عن ظهر جـوادها ، واندفعت الى أحضان والدها ، تدفن وجهها فى صدره وتجهش بالبكاء :

ــ لقد حضرت يا ابنتى فى الوقت المناسب . تعال انت الآخر يا ولدى . هيلارى ، اصطحب الضابط ورجاله الى القصر وقدم لهم الطعام والشراب . ثم عد الينا باحدى العربات وبالموسيقيين .

وأسرع قسطنطين بالترجل عن ظهر جواده هو الآخر ، وتلقاه الملك بين ذراعيــه وأجلسه بجـــواره ، ومضى هيـــلارى لينفذ ما أمر به .

وربت الملك بيده على راس هيلينا ، فرفعت وجهها اليـــه قائلة :

ــ أبتاه ، لقد عرفت كل ما جرى ، أنا واثقة من هذا ، ترى متى سينتهى كل ذلك ؟ . وبماذا تشير على ان افعل ؟

ــ ان الغزاة يجيئون ثم يذهبون ، لا دوام الا للحق إ

ــ ولكن روما ــ روما ــ هل انتهى امرها ؟!

ـ اذكر يوما كنت تتمتين فيه ذلك • ايلين ـ الم يصدر هذا منك ؟!

ـ لقد كنت طفلة يا والدى •

ـ ولا زلت كذلك • انك لم تتعلمى الا القليل • ولكنك ستتعلمين الكثير قريبا •

ـ اننى أحب زوجى ، أحبه من كل قلبى !•

ـ وهو يفكر فيك الآن • ولكنه قد لا يستمر على ذلك طويلا • لئن كنت تحبينه حقا ، فلتحبينه بكل ما تملكين من قوة•! وليكن حبك له فى جميع الأحوال • ليكن حبك له فوق مستوى الأسى وخيبة الأمل • هذا الحب سيؤتى ثمارة عندما يحين الحين•! ولترتفعى بحبك على كبريائك • ضعى هذا نصب عينيك ، ليكن حبك أقوى من كرامتك ، عندما يتطلب الأمر هذا منك !•

ولم تستطع هيلينا أن تضع النقط فوق الحروف ، ولكنها شعرت بما ينطوى عليه حديث والدها ونصائحه من تحذير وتلميح خفى • فليس فيما سمعت ما يطمئن • فقالت له :

ـ بماذا تشير على ؟• هل أقيم معك ؟• وهل يكون الصبى هنا فى أمان ؟

ـ كلا يا ايلين • لا أنت ولا أنا بمستطيعين البقاء هنا • فعلى كل منا أن يذهب فى طريقه !•

ـ ولم لا يا والدى ؟

وتأملت وجهه الهادىء المبتسم الوديع • ولكنها تبينت من بين خلجاته وهن نور عينيه أن أيام الرجل ، بل ساعاته فى هذه الحياة قد قاربت نهايتها • ثم سمعته يقول لها بصوت حالم :

ـ هدوءا يا ابنتى • اننى رجل سعيد قد بلغ من العمر عتيا•! وما أظنك براغبة فى تعكير صفو هنائى ، أليس كذلك ؟• اذن فلتستمعى الى ؛ فمهما يكن من أمر ما تفعلين ـ وانى لخبير بقلبك الكبير وأثق من اخلاصك ـ فانك لن تنسينى فى تعاسة شعبى •! لا تحرضيهم على مقاومة العدو الغاصب • ان الأوان لم يؤن بعد •!

حتى روما ، تتطلب الكثير من الوقت لتبنى لها أسطولا . دعى هذه العاصفة تمر بهم كما تمر العاصفة بحقل من القمح فتميل معها سنابله . ان الغزاة يقبلون ويمضون . ولا دوام الا للحق الأعلى . عدينى بألا تثيرين شقاء شعبى .

ـ أعدك بذلك يا أبتى .

ـ حسن . وانني لا استطيع ان أطالبك بالخضوع للفاتح المغتصب . انك مدينة بالولاء لزوجمك ولروما . ولتتصرفى بما يتطلبه منك واجبك وولاؤك . لن أستطيع أن أمدك بأية مساعدة من جانبى . ولكننى أستطيع ان اهديك بما يكون اشد نفعا لك من ذلك .. بعقل نادر الوجود . فسيكون خادمى وتابعى هيلارى ، خادمك وتابعك من الآن فصاعدا . انني أورثك ما لم يورثه ملك لخلفه من قبل . انه الاخلاص يابنيتى . فامنحيه ثقتك بقدر ما كنت تثقين بى .

ـ اطمئن يا والدى ، انى متبعة لمشورتك عامة بها مقدرة لهديتك .

ـ ان هيلارى هو الحكمة التى تنقص الشباب . انه العقل المفكر المدبر-الذى لا يستطيع أن يكونه ضابطك الحارس . اتجهى شمالا ، ولكن لا تتجاوزى السور العظيم وهناك ستجدين الغابات. الغابات التى ستتلقى ابنة كويل بكل حنان وحدب !.

وجال بعينه فيما حوله من أشجار قائلا :

ـ أشجار الغابات بأخشابها هى التى ستحميك من أعدائك . ان فى الخشب سر الحياة . ولعلك تذكرين يا ايلين يوم ولد هذا الصبى ؟ لقد أمرتك بأن تضطجعى على المنضدة الخشبية فى غرفتك، أليس كذلك ، ومن هذا الخشب تغلبت على آلامك واجتزت ازمتك . هناك صلة وثيقة بينك يا ابنتى وبين هذا الصبى . صلة اقوى من صلة الدم ـ صلة اقوى من الأمومة ـ التى يشيد بها الشعراء على مر الزمن . لقد قدر لكما ـ أنت وهو ـ انكما ستهتديان الى شجرة الحياة معا ! .

وراح صوته يخفت شيئا فشيئا ، حتى غلبه النعاس واستسلم

لنوم عميق . والتفتت هيلينا لترى ولدها هو الآخر قد حذا حذو جده من شدة ما ناله من تعب واجهاد . فتأملتهما بنظرات حانية رحيمة ، وجلست ساكتة حيث هي ، حتى لا تزعج الجد والحفيد . ن كل من حولها مجهد متعب ، بحاجة لمن يقف الى جانبه . فعليها اذن الا تهن والا تضعف .

ووصلت الى مسامعها أصوات الموسيقى التى أمر بها والدها آتية من بعيد بألحانها المتقطعة القصيرة . انها موسيقى والدها التى يحبها ويرتاح لسماعها . موسيقى والدها يرن صداها عبر الجزيرة التى يقتل رجالها وتحرق دورها وتعمها الفوضى والخراب . وبالرغم من ذلك كله ، يبعث الملك كويل فى طلب العازفين الموسيقيين من رجاله ، دون ان تدرك لذلك سببا . لقد عرفت عنه دائما أنه رجل غريب الأطوار .

ولم تشعر من قبل بأنها بعيدة عن والدها بمثل ما كانت تشعر به فى هذه اللحظة . كلا ... ليست هذه بساعةالحكمة والتروى . انها ساعة الجهاد والنضال . وأسفت على ما قيدت به نفسها من وعد له . انها لم تحضر لمقابلة والدها لتسمع منه للمرة الألف قصة الخشب الحى ... وشجرة الحياة !

واستطاعت أن تتبين القادمين فى الظلام ، يتقدمهم هيلارى ، ومن بعده الموسيقيون ، ثم العربة الصغيرة . وما ان أصبح القادمون على بعد خطوات منهم توقف الموسيقيون عن العزف ، فى انتظار أوامر الملك .. ولكن الملك لم يتحرك ولم يتنبه لحضورهم .

وتأمل هيلارى الشيخ النائم فى لهفة وقلق . ثم انحنى لسيدته وتأمل الصبى . وتقدم منه ، حيث حمله بين ذراعيه وأودعه العربة فى حنان الأم العطوف . ونهضت لتتبع ولدها الى العربة ، حيث حياها قائدها جاللو الهرم مبتسما . وبعد ذلك عاد هيلارى الى حيث يجلس الملك . وفجأة توقف عن متابعة سيره محدقا النظر فى وجه الملك جزعا ، وارتد سريعا لينادى سيدته .

كان الملك كويل جالسا على صخرته المحببة كما كان يجلس دائما ، وقد اكتسى وجهه بصفرة الموت . فأدركت أن والدها قد

فارق الحياة ، كما أدركت السر في استدعائه للموسيقيين وفي قوله لها عندما اقبلت عليه :

ـ لقد جئت في الوقت المناسب !!

وخيم السكون على المكان ، وران على الجميع صمت مطبق

واصبحت هـــذه البقعة من الأرض وكأنها قطعة من الأبد .. ووقفت ، وطال بها وقوفها ، وقد شعرت بأنها اقتطعت نفسها عن الــكون بعيدا حيث لا حس ولا حياة .

ورفعت ذراعها آمرة الموسيقيين بعزف النشيد الملكي . وعزفت الموسيقى النشيد وردد الجميع معها كلماته . وما انتهى العزف والترديد ، حتى اقترب هيلاري من الصخرة ليحمل الملك كما حمل حفيده من قبل . لقد رفع بين يديه المستقبل والماضي : واحدا بعد آخر .»

- ٦ -

صيد ثمين ، هذا ماقاله القائد تيرنتيوس لزميله كونستانتيوس وهو يرتدي ثيابه ويتأنق فيها . فسأله :

ـ ماذا تعني بقولك هذا ؟!

ـ أعني ما قلته وما فهمته أنت يا صديقي ! »

وبعد أن صرف كونستانتيوس تابعه ، قال لصديقه بجفاء :

ـ لا أعرف عم تتحدث . انني ذاهب لاستقبال رسمي »

ـ بناء على دعوة السيد ثيودورا . أليس كذلك ؟

ـ ان ماميرتينوس سيكون هناك . وقد يشهد الامبراطور هذا الحفل .

ـ ان ماكسيميان مشغول بضرائبه عن كل شيء آخر .

ـ حتى أنه لم يعد يجد فسحة من الوقت للحملة البريطانية . لقد انقضى عام دون اتخاذ أي اجراء في هذا الشأن .»

ـ لقد بذلت اقصى ما فى وسعك .. ولو كنت مكانك لابتعدت عن ماميرتينوس .. لأننى أعتقد أنه لن يظل فى منصبه طويلا كقائد عام .. ان ايسر الطرق هى اقصرها .. عليك بسلوك السبيل المباشر يا صديقى .

ـ وهذا ما ارجوه فعلا ، اذا ماابيحت لى فرصة لقاء الامبراطور اليوم ..

ـ قليل من الصبر ، ايتها الآلهة ! عندما اقول الطريق المباشر لا اعنى بهذا الامبراطور .. انى أعنى تيودورا .. هدية الآلهة اليك ! .

ـ ارجو الا تقحم الأميرة فى هذرك . لقد أسبغت على من عطفها الكثير .

ـ وهذا هو بيت القصيد . فان لها تأثيرا كبيرا على والدها . واعتقد انه لا ينقصك من الذكاء ما تستطيع به أن تضع النقط فوق الحروف .. صيد ثمين ! .

وشغل عنه تيرتيوس حتى لا يتيح له فرصة للكلام . ولم يجد كونستانتيوس بدا من مغادرة الغرفة دون ان يعقب بشىء . وخرج ليستقل العربة التى صرف قائدها ليقودها بنفسه فى طرقات المدينة المزدحمة .

وفى الحديقة الفسيحة الأرجاء ، تناثر المدعوون جماعات ، يتبادلون الأحاديث والأقاويل والاشاعات ، كما هى العادة فى هذه المجتمعات دائما .

وكانت اكبر هذه الجماعات ، الجماعة المحيطة بالأميرة تيودورا التى ردت تحية كونستانتيوس عندما أقبل يحييها ، على غير ما الفه منها ، من ود وترحاب . حقيقة انها ابتسمت له كعادتها ، ولكنها تشاغلت عنه بالحديث مع فاتيشيوس . فماذا جد بحق السماء ؟ ماذا ترى فى هذا الطاووس المتأنق ، الذى لا هم له الا ان يعنى بصقل شعره وارتداء فاخر الثياب الموشاة بالذهب والفضة . انه ضابط حرس وحاميات ، لم يكن له شرف القتال فى مقدمة الجيوش والنزال فى جبهات الصراع العنيف كغيره من كبار القواد المحنكين .

وشعر كونستانتيوس بالغضب يستبد به ويزداد ، كلما رأى

الأميرة مستغرقة فى حديثها مع هذا الدعى المستظرف . ولما ضاق ذرعا بما يرى ، نهض عن المائدة التى كانت تجلس اليهـــا الأميرة تيودورا بالشرفة ، وسار على مضض فى الحديقة يستعرض الأمر، محاولا ان يجد لمعاملة تيودورا الجديدة تعليلا من وشـاية واش ؟ أو من عدم رغبتها فى أن تختصه بعطفها أمام هـذا الجمع الملتف حول مائدتها . وشعر بانه فى حيرة من أمره لا يستقر له قرار .

وقابل احدى الخدم التى كانت تحمل قنينة من النبيذ وبعض الكئوس ، فافرغ لنفسه كأسا تجرعه دفعة واحدة وهو يقول

ـ الى الجحيم بحفلات الاستقبال العامة . الى الجحيم بالنساء جميعا . ترى ماذا اتى بى الى هذا الحفل ؟ أو لاحتساء النبيذ فقط ؟

اذن فليحتسى منه ما شاء . وأعاد الكرة وهو يمنى نفسه بحضور الامبراطور الى الحفل ، حتى يستطيع ان ينتهز الفرصة التى كان يترقبها على الأقل .

وبينما كان واقفا يتأمل أحد « الحواة » وهو يقوم بالعابه السحرية الآخذة بالألباب ، شعر بلمسة رقيقة على ذراعه ، فتلفت ليرى ليفونيا ، احدى وصيفات الأميرة ، وسمعها تقول له هامسة :

ـ بعد الغروب بساعة ، عند باب الحديقة الصغرى .

واسرعت بالاختفاء بين جمهور النظارة خشية أن يراها أحد وهى تتحدث اليه .

ان ليفونيا فتاة بارعة الحسن ؟ ولكنه لن يستجيب اليها .. ان لديه من المهام ما لا يسمح له بان يقضى أوقاته مع الحسان .. كلا . ان خير ما يفعله فى تلك اللحظة ان يستقل عربته وينطلق بها . ان احدا ما لن يكتشف غيابه .. ان أحدا ما لا يهتم بوجوده .

***

وعندما كان يتناول طعام افطاره فى اليوم التالى ، انقل عليه تيرنتيوس باسئلته . كان يريد أن يعرف كل شىء ويلم بجميع التفاصيل . قال له كونستانتيوس ليرضى فضوله :

ـ لم يكن الحفل بالصورة التى تتخيلها . ولم يتحقق لى فيه شىء من أمانى . فماميرينوس كان يتهرب منى ويتحاشى الانفراد بى . والأميرة كانت مولية كل اهتمامها للطاووس الذهبى فايتنيوس والامبراطور لم يشرف الحفل كما تنبأت انت بهذا .. وقضيت وقتى أحتسى كميات كبيرة من النبيذ حتى ضقت ذرعا بكل شىء وأخيرا قررت ان أقفل راجعا قبل الغروب تاركا الحفل ومن فيه. وبعد أن استبدلت ثيابى وتناولت عشائى ، قرات قليلا ثم أويت الى فراشى !.

ـ أسخف تقرير عرض على . الم تخف شيئا عنى ؟

ـ كلا . هذا كل ماكان فعلا . اللهم الا من أشياء أخرى ليست بذات أهمية ، «كالحاوى» الذى يستعرض ألعابه السحرية وكذلك الفتاة الجميلة التى طلبت منى أن اقابلها بعد الغروب بساعة .

ـ ولماذا لم تذهب الى الموعد الذى حددته لك ؟

ـ كنت منحرف المزاج . ثم انك تعلم اننى رجل متزوج .

ـ ومن عساها تكون تلك المعجبة ؟

ـ انك شديد الفضول .

ـ هل لك فى أن تعيد على مسامعى ما قالته لك ؟

ـ لقد لمست ذراعى برفق بينما كنت أشاهد الألعاب السحرية وقالت لى بعد الغروب بساعة ، عند باب الحديقة الصغرى .. ثم أختفت بين الجموع .

ـ وهل كانت هذه السيدة من وصيفات الشرف ؟

ـ أجل . وهل فى ذلك من ضير ؟

ـ يا الهى . ما أشد بلاهتك ! يا لك من غر أحمق !.

ـ ماذا دهاك ؟

ـ دهانى انا أيها الغافل ؟ الم يتبادر الى ذهنك ان هذه الفتاة لم تكن بأكثر من رسول اليك ؟

ـ ما .. ماذا تقول ؟

ـ ان وصيفات الشرف لا يجرءون على شىء من هذا القبيل لحسابهن الخاص . لقد بلغتك هذه الوصيفة رسالة سيدتها الأميرة

اليك ، وانت لم تستطع بعقلك الذى علاه الصدا ان تدرك ذلك ، فاسرعت بالانصراف وقفلت راجعــا لتقرا وتنام . لعلك تمتع بقراءة طيبة !

ــ ولكنها كانت منصرفة عنى طوال الحفل . كانت موجهة كل اهتمامها الى فاليثيوس ولم توجه الى كلمة واحدة .

ــ وهذا بالذات ما يؤكد لى ان الرسالة كانت منهــا . انهــا تعمدت ذلك لتصرف الأنظار عن حقيقة اتجاهها . يا لضيعة قائد الحملة الى بريطانيا .

ــ ليس هذا من مستلزمات القيادة بحال ما .

ــ انك جعلت منها بتصرفك هذا عدوا لك . لقد واتتك الفرصة على صحاف من فضة ، ولكنك اعرضت عنها ، فضاعت منك قيادة الحملة الى بريطانيا .

ومن ذا الذى سيحتل مكانى ؟ انهم لن يوفقوا الى القــائد الكفء الذى ...

ــ لن اجيب بشيء الآن . سأترك الرد للأحداث نفسها .

وكان تيرينتيوس محنقا مغيظا .

وتولت الأيام فعــلا مأمورية الرد على ســؤال كونستانتيوس لصديقه ، حين صدرت الأوامر بتعيين ماركوس فاليثيوس قائدا للحملة البريطانية . وادرك كونستانتيوس ان صديقه كان على حق . لم تكن الــكفاءة كل شيء . هناك اشياء اخرى تقرر مصير الأفراد والدول .

والى المنضدة الكبيرة الموجودة فى غرفته ، جلس القائد المنسى يتأمل الخريطة التى كان يعدها لقهر كاروسيوس الغاصب المتمرد . جلس يتأملها وقد استغرق فى تفكير عميق مضن .. أو بعد كل هذا الانتظار الطويل ، وبعد كل تلك الجهود المتواصلة ، ينتهى الأمر على هذه الصورة ؟

هــكذا قضت نزوة امرأة على كل آماله وآمال الامبراطورية أيضا .. وهكذا تتقرر مصائر الامبراطوريات الــكبرى . هــل سيكتشف التاريخ ذلك فى يوم ما ؟

- ٧ -

ـ تبينوا خطواتكم جيـــدا . ان الصخور ملساء شـديدة الانزلاق ! .

بهذا حذر هيلارى المتتبعين خطاه .

ـ هل انت بخير يا قسطنطين ؟

ـ اجل يا اماه .. كل شيء على ما يرام .

وسرفافوتيوس من روح الصبى العالية . وكانا يعاونان معـا القائد كوريو على هبوط المنحدر الصخرى .

كان البحر يهدر من تحتهم ، والقمر يطل عليهم بوجهه الشاحب من خلال السحب ، فيعينهم على تلمس مواضع اقدامهم .

ـ هل تستطيع ان ترى القارب يا قسطنطين ؟

ـ كلا يا اماه .

ـ اين المشعل ؟

ـ معى يا اماه .

واوقد الصبى المشعل ورفعه الى أعلى وبعد ان تقدموا قليلا صاح قائلا :

ـ اننى استطيع ان ارى القارب الآن .

وهنا انبرى القائد كوريو قائلا :

ـ لدى كلمة تتردد على لسانى،اريد ان اريح ضميرى باطلاقها من بين جوانحى التى تحتبس فيها .

ـ لقد قمت يا سيدتى بالمعجزات . اننى لم اصادف فى حياتى امراة من طرازك . لقد جئت الى محتمية بى ، فاذا بالوضع ينقلب وأحتمى انا بك . ولولا رجالك ولولا هيلارى لما اهتديت لمثل هذا القارب تمكنت من الاقلاع الى روما .

ـ سافر فى رعاية الله . ولا تنسى أن تشرح للامبراطور كل

شيء . انك غير مسئول عن فشل الحملة . ان المسئول هو فايتنيوس بسوء تقديره وقلة تجاربه . قل للامبراطور انه لن يسترد بريطانيا الا بواسطة قائد محنك يعرف كل شيء عن هذه البلاد . قل له ان كونستانتيوس هو هذا القائد الذى هو بحاجة اليه فى مهمة مثل هذه . قل له انه كلما عجل بهذا الأمر ، كلما كان فى ذلك الخير كل الخير لروما . لقد بذلنا أقصى ما فى وسعنا ولكن الحملة الأساسية فشلت ولم توفق فيما أتت من أجله .

وحاول كل من هيلارى وفافونيوس تثبيت القارب الى الصخرة التى كانوا يقفون عليها . وكان بالقارب ستة من البحارة ، الذين اعانوا القائد كوريو على الهبوط اليه . وما ان استقر به حتى رفع يده محييا وهو يقول :

ـ رعتك الآلهة يا سيدتى .

ـ فى حفظ الله . يمكنك الاعتماد على هؤلاء الرجال . لقد عنى هيلارى بارشادهم واحاطهم علما بما يجب أن يقوموا به . انهم حقا من المهرين ، ولكنهم سيبذلون أقصى ما فى وسعهم ، حتى تتمكن من الرسو بالقارب على شاطىء فرنسا . لا تنس أن تبلغ زوجى حبى وتحياتى !.

ـ وداعا يا قسطنطين . سأخبر والدك بكل ما كان منك ، وسأطمئنه أنه سيجد فيك خير رجل عند عودته . وداعا سيدتى . وداعا هيلارى . وداعا فافونيوس .

وانطلق به القارب مبحرا ، ووقفت الجماعة الصغيرة على الصخرة ترقب القارب حتى اختفى عن انظارها . ثم شرعوا يتسلقون الصخور فى طريق العودة . فافونيوس فى المقدمة ، ومن بعده قسطنطين ، ومن بعدهما هيلينا ، ثم هيلارى فى المؤخرة . ولم يلقوا فى صعودهم ما لاقوا من عناء فى هبوطهم . وما هى الا ربع الساعة حتى كانوا قد بلغوا قمة المنحدر حيث كان ينتظرهم روفوس بالجياد التى اقبلوا بها .

ـ هل من جديد يا روفوس ؟

ـ كل شيء هادىء يا فافونيوس .

واعتلوا ظهور جيادهم التى انطلقوا بها الى الضيعة المنعزلة بعد مسير ساعة على ظهور الجياد . وعندها قابلهم رجل كهل يرتدى حلة زرقاء انضم اليهم ممتطيا صهوة الجواد الذى كان يمتطيه كوريو عندما ذهبوا به الى الشاطىء . واستأنفت الجماعة سيرها فى صمت وسكون . كانوا ستة أشخاص فى ذهابهم ، وهم ستة فى عودتهم . ان لكاروسيوس عيونا كثيرة تتطلب من المرء المزيد من الاحتياط .

وبعد أسبوعين عادوا الى البيت الصغير القائم عند مشارف مدينة فيرلوم ، حيث كانت تقيم « الأرملة زينيا » وولدها . ولم يكن احد ليعرف عنها الكثير .. فيما عدا أنها قد قدمت من مكان ما بالأصقاع الشمالية ، وبرفقتها ابنتها الوحيد ، وهيلارى ، ورجل قوى البنية يدعى ماركوس (فافونيوس) ، وروفوس ، وبعض الخدم .

وكانت الأرملة زينيا تحيا حياة هادئة منعزلة . حيث كانت تقضى أوقاتها فى العناية بحديقتها وبجيادها التى كانت مغرمة بها . وكان يعاونها فى ذلك البستانى ماركوس .

وكان من المستغرب أن تعمد السيدة الجميلة المحترمة الى تغيير عينة صغار الخدم فى فيلتها الأنيقة من وقت الى آخر . الأمر الذى حدا برئيس البوليس فى فيرلوم ان يتحرى الأمر كله . وقد تبين له من تحرياته أن هذه السيدة من أصل عريق ، وأنها تدفع المستحق عليها من ضرائب بانتظام ، وأنها تعطف على الفقراء . كما أنها لا تحتفظ الا بخادمتين متقدمتين فى السن بصفة دائمة . أما الأخريات فلم تكن تحب الاحتفاظ بهن بالمنزل كثيرا ... وهو تصرف سليم عندما يكون بالمنزل ابن فى السابعة عشرة من عمره .

وتناقل القوم فى الناحية ، أن هذا الابن الشاب كثيرا ما كان يرى فى صحبة مينرفينا الصغيرة ، التى كانت تقيم مع والديها فى الفيللا المجاورة لهم . ولم يكن ذلك بأكثر من تلك الأقاويل التافهة التى يحب القوم أن يتلهوا بها . فقد كانت هذه الفتاة

صبية لم تتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمرها . جميلة رقيقة ذات عينين سوداوين كبيرتين .

قال هيلارى لسيدته مختتما حديثه معها :

ــ لا داعى للقلق فى الوقت الحاضر على الأقل . لقد التقيت برئيس البوليس ، روتيلو ، وتبادلت معه حديثا طويلا . وهو لا يستطيع ان يخفى ما يجول بخاطره . ولم اتبين من حديثى معه أنه يشك فى أمرنا . لقد قضى كل من ثراكس وبولدس نحبهما دون أن يتفوها بشىء . ان شبكتنا لم تزل سليمة محكمة لم يعتورها خلل . أما الى متى ستظل كذلك ، فهذا هو السؤال ؟.

فرفعت الأرملة زينيا ذقنها الى أعلى فى اصرار وكبرياء ابنة الملك كويل قائلة فى نبرات قوية لا تعرف الوهن :

ــ ان الأمر سيظل على هذه الحال حتى يقبل زوجى . وانه ليسرنى أننى لم أصدر الأمر بالهجوم قبل الأوان .. والفضل فى ذلك يرجع لك يا هيلارى ، وليس لى !.

ــ لقد عارضتينى فى ذلك أول الأمر ، حتى تأكدت من أن كونستانتيوس لم يكن قائد الحملة . ولقد كان من حسن حظنا أننا تداركنا الأمر قبل فوات الأوان . ولسوء حظنا أيضا اتضح أن كاروسيوس ليس بالرجل الذى يستهان به . انه يثبت لأقدامه فى هذه البلاد ، بعد أن قضى على الأسطول الامبراطور ، وعاونته فى ذلك العواصف والأنواء . انه يثبت لأقدامه ويوطد لحكمه بالمحبة والخوف معا . ويمكنك أن تتبينى هذا من نتائج حكمه فى هذه السنوات القلائل . لا .. لا تعبسى فى وجهى يا سيدتى . انتى أعرف أنه مغتصب يجب أن نقاومه وأن نقاتله ــ ولكن من الخير لنا الا نقلل من شأنه ــ فاننا ان فعلنا هذا أسأنا الى أنفسنا بالاستهانة بقدره . يجب علينا أن نعرف عدونا على حقيقته ، حتى نعد له من جهودنا ما يتكافأ مع قدره !.

فابتسمت راضية قريرة العين بما سمعته منه أخيرا قائلة :

ــ انك دائما على حق يا هيلارى . انك هدية والدى حقا .. والدى الذى أدرك عند وفاته ما أحتاج اليه فعلا ..

ـ وهذا شأننا جميعا ، أو شأن من ترضى عنهم الآلهة »

وخاضا فى حـــديث طويل عن امكانياتهم ، وعن احتمالات المستقبل • وقـــدرا أن كوريو لا بد أن يكون فى روما فى تلك اللحظة التى يتحدثان فيها عما يمكن أن يقوما به بتنظيمهمـــــا القليل العـــدد عندما يجد الجد • وأشـــار هيلارى الى جماعة المسيحيين التى انضمت اليهم • فقالت له هيلينا أو الأرملة زينيا (الاسم التى اختارته لنفسها متخفية ، مؤثرة اياه على غيره من أسماء ، لأنه تصغير لاسم زينوبيا) :

ـ اننى لا أرجو منهم الكثير فى القتال • ان معظمهم من النساء والأرقاء والمستضعفين •

فزم هيلارى شفتيه متأملا ما بين قدميه :

ـ لست واثقا من ذلك • لقد رأيت منهم عجبا ، وأحطت ببعض تاريخهم • انهم يضحون بأنفسهم فى سبيل معتقـــداتهم • وهم يؤمنون بصاحب السلطان وبالقانون • كما انهم لا يثورون ضد أولى الأمر منهم • فهم دائما فى صفهم • وهذا هو السبب فى أنهم فى صف روما ضد كاروسيوس ، الذى يعدونه مغتصبا متمردا !•

ـ لقد انضموا الينا فى أشد أوقات حاجتنا اليهم •

بهذا آمنت هيلينا على قول هيلارى •

وأطرق هيلارى برأسه موافقا على ما قالتــه هيلينا • وراح يستعيد ما كان من جماعـة المسيحيين عندما كانوا يعيشون فى غابات الأقاليم الشمالية • وذكر لها كيف كانت جماعتهم تمدهم بكل ما يحتاجون اليه من طعـــام وشراب وغير ذلك من مطالب الحياة الضرورية • لقد كان كل ذلك قبل أن يلتقى بالبانوس •، وعنده أن اللقاء بالبانوس يعتبر نقطة تحول فى حياة المرء •،

ـ ألم ترد اليك أية انباء عن صديقك البانوس ؟•

فتأملها هيلارى فى دهشة • ثم ابتسم قائلا :

ـ اننى إنسى أحيانا أنك ابنة الملك كويل • لقد كنت أفكر فيه عندما سألتيننى عنه •

وطرقت آذانهما وقع خطوات تقبل مسرعة فى اتجاه الغرفة التى يجلسان فيها . واندفع قسطنطين من باب الغرفة قائلا :

ـ أماه ، هيلارى ٠٠ أنباء مثيرة !!

فحدجته أمه بنظرة قاسية قائلة :

ـ مهما يكن من أمر هذه الأنباء ، فان ذلك لا يبرر اقتحامك الغرفة هكذا ٠ لقد شببت عن الطوق ولم تعد طفلا ٠

انها لا تترك كبيرة ولا صغيرة الا بصرته بها ٠

ـ انني جد آسف على ما بدر مني ٠ معذرة يا أماه ٠!

ـ والآن هات ما عندك !٠

ـ ان كاروسيوس فى طريقة الى هذا الانحاء ، وسيمر بفيرلوم بعد ظهر الغد ٠

فلمعت عيناها ببريق خاطف ، ولكنها تمالكت نفسها قائلة :

ـ من ذا الذى أنباك بذلك ؟٠

ـ أولوس سكابولا ٠ لقد سمع بذلك من المحافظ نفسه ٠! وهم يعدون العدة لاستقباله ٠ وبودى لو ألقى نظرة عليه ٠!

ـ هل التقيت بمينرفينا ؟٠

بذلك ارادت أن تحول دفة الحديث ٠

ـ أجل يا أماه ٠

ـ فلتضع نصب عينيك أنها من أسرة كريمة لها قدرها ٠! وأن لقاءك المتكرر لها قد يسيء اليها . وان من شأن هذا اللقاء أن يثير القيل والقال عنهم وعنا ٠ ولعلك تذكر أننى لا أحب أن يتحدث الناس عنا كثيرا ٠ لا ٠٠ لا أحب أن أسمع منك شيئا الآن ٠٠ فكر فيما قلته لك ثم حدثنى برأيك فيما بعد ٠ والآن فلتنصرف وتتركنا لنتم ما كنا نتبادل الحديث فيه ٠

وتأملها هيلارى بعد انصراف ولدها ٠ تأمل هذا الوجه الجاد الجميل ٠ وتأمل هاتين العينين الساهمتين تعكس تفكير صاحبتهما فيما هو اجل واخطر من علاقة ابنها الغرامية ٠ انه يستطيع أن ينفذ الى اعماق ما يدور بخلدها فى هذه اللحظة بالذات ، بعد

ان سمعت نبأ قدوم كاروسيوس • وانه ليذكر ما قالته له من قبـــل ، عن أن حكم كاروسيوس يستمد قـــوته من شخصية كاروسيوس العظيمة ، وأنه لا يوجد فيمن حوله من هو جـدير بأن يحل محله •- ترى فيماذا تفكر ؟••

تقدمت الموكب ثلة من الفرســـان ، عددها أكثر من مائتين بثيابهم الزاهيـــة وحللهم المزركشة ودروعهم اللامعـة وخوذاتهم العالية • وكانت الطرقات مغطاة بالورود والرياحـين ، وشرفات المنازل تعج بجمهور الراغبين في مشاهدة هذا الركب العظيم •

وفي أعقاب ثلة الفرسان مرت عربة من الطـراز الفرنسي ، يحيط بها خمسون فارسا من خيرة الفرسان • وبعد ذلك أقبلت ثلة أخرى من الفرسان لا يقل عددها عن الثلة التي ســـارت في المقدمة ، وفي أعقابها عربة فرنسية أخرى •

ووقف الشاب في فرجة الباب يحكم تسديد قوسه • وعندما أوشك أن يطلق سهمه ، شعر بيد غليظة توضع على كتفه وبالأخرى تمسك بالسهم ، وسمع صوتا مالوفا لديه يقول :

ـ لا جدوى من ذلك يا ولدى ، ليس هذا الرجل برجلك •.

ـ فافوتيوس !!

بذلك همس قسطنطين ثم استطرد قائلا :

ـ دعني وشاني ، لقد كدت أنال منه • لماذا فعلت ذلك ؟•

ـ اثبت يا ولدى • ألم يدر بخلدك أنك بعملك هذا ستعرضنا جميعا للسجن والتشريد ، بما في ذلك والدتك ؟•

ـ كيف جرؤت على أن تتجسس على ؟•

ـ عندما اتبين أن قوسا من خير ما تحتويه مجموعة سلاحي قد نقص منها وعندما اشعر بأنك قد خرجت متسللا دون أن تخطر أحدا ، أتحرك لأجدك وأستعيد قوسى •• لقد جانبك التوفيـق وتنكبت طريق الصواب فيما كنت بسبيل ارتكابه من خطأ جسيم، لم يكن من شأنه ـ سواء تم أو لم يتم ـ الا أن يعـــود بالويل

والتبور علينا جميعا . ثم ان هذا الرجل الذى كنت تسدد اليه سهمك لم يكن كاروسيوس . انه كان الليكتوس !.

ـ وحتى لو صح ذلك . أولا يستحق الليكتوس القتل . أو نسيت ما فعله بنا منذ أربع سنوات ؟.

ـ لقد نال جزاءه منى . ولكنك كنت ستقدم نفسك لقمة سائغة لهذا الحشد من الجنود . اعترف معى بانها كانت نزوة صبيانية !.

ومن نافذتها بالطابق الأول ، وقفت هيلينا تطل على الركب، ووقف هيلارى يتأملها ولا تتحرك عيناه عنها . انه يريد أن ينفذ الى أعماق نفسها .

ـ يا للطاغية الجبار ! ان له رأس ثور وعنق خنزير .. انى لأذكر قول والدى عنه .

ـ ترى ماذا كان يقول والدك عما يجول بخاطرك الآن ؟.

ـ ان راكب العربة الثانية هو الليكتوس .. اذن فقد نجا من الموت وشفى من جراحه .

ـ لقد صبح رجلا عظيمـــا . ويقول البعض عنه انه الرجل الثانى فى الدولة . ولكنه ليس له من الصفات التى تؤهله للعظمة والقيادة والشخصية الطاغية .

ـ اذن ، فلا يوجد بعد كاروسيوس من يشغل منصبه ؟.

ـ بودى لو أقلعت عما تفكرين فيه .

ـ انك تحب المعارضة أحيانا ، أليس كذلك ؟.

ـ انه الجنون بعينه . ان ما تفكرين فيه هو القتل مهما كانت مبرراته وأسبابه .

فاستدارت اليه قائلة فى غضب محتدة :

ـ كيف تجرؤ ؟ ..

فركع هيلارى امامها مستغفرا :

ـ سامحينى يا سيدتى . ان من واجبى أن ابصرك بالأمور .

ـ انهض . اننى أكره أن أرى امامى رجلا على ركبتيه . انهض ولا تلجأ الى اثارة غضبى ثانية .

ونهض الرجل متثاقلا وهو يقول:
ـ يحسن بنا عندما يستشكل علينا امر من الامور،ان نحاول تصور ما كان يمكن أن يقول فيه رجل نثق فى حكمته وسداد رأيه وانني الآن افكر في والدك ، وفي البانوس .
ـ البانوس ؟ أو أصبح قدوة لك الى هـذا الحد ؟ ترى هل أصبحت مسيحيا ؟.

فتردد الرجل قليلا قبل ان يجيب :
ـ لست أدرى يا سيدتى . لانني لم أتبين بعد حقيقة امرى . ليس الامر بهذه السهولة فهناك الكثير من المسائل التى لم افهمها بعد . ان الظروف لم تسمح بان التقى بالبانوس كثيرا .
ـ ترى ماذا كان يقول والدى عن حالتك هذه ؟.

ـ وهذا هو نفس ما أردده بينى وبين نفسى . لطالما تساءلت غير مرة عن ذلك . بل وانه ليحزننى ان الاقدار لم تسمح بان يتم اللقاء بين الملك كويل والبانوس هذا .
ـ لا جدوى من مثل هذا الحديث . دعنا منه الى ما يجب أن نفكر فيه . فى قضيتنا التى يجب ان نكرس لها حياتنا وكل تفكيرنا فى روما . فى كاروسيوس الذى سيقضى بضعة ايام فى قصر الحافظ . فى الأرملة زينيا التى يمكن ان تحصل على اذن بمقابلته .

ورفع هيلارى سبابته الى شفتيه محذرا : بعد ان سمع وقع أقدام مقبلة فى الردهة . وبعد قليل استاذن احد الخدم فى الدخول ولما أذن له أخطر سيدته برغبة فافونيوس فى مقابلتها . فقالت له :
ـ دعه يدخل .
وما ان وقع نظرها على وجهه الممتقع ، حتى اتسعت حدقتاها دهشة وترقبا . وتريث فافونيوس حتى ابتعد الخادم ثم قال بصوت اجش :
ـ لقد شاهدت جماعة من الفرسان يمرون بمنزلنا . كلا . كلا انهم ليسوا من القوات المرافقة لكاروسيوس . وتبينت بينهم ثلاثة

من الضباط الرومان فى حللهم الرسمية . ولقد تعقبتهم .
ـ ضباط من الرومان .
ـ أجل يا سيدتى . قائد وضابطان . أما الآخرون فكانوا من رجال حاشية كاروسيوس وحرسه الخاص .
ـ حاشية كاروسيوس ؟ كأنى به قد صار ملكا .

ـ أخشى أن تكون هذه هى الحقيقة .. لقد تبعتهم حتى لحقت بهم وسألتهم عما أتى بهم الى هذه الناحية . فتنازل أحدهم بالرد على قائلا :

ـ افسح الطريق أيها الخنزير . ان هؤلاء الاسياد قد حضروا موفدين من قبل روما للاعتراف بقائدنا كامبراطور لبريطانيا .
ـ هذا غير صحيح . لا يمكن ان أصدق شيئا من هذا القبيل .
ـ وأنا أيضا لم أصدق ذلك . ولكننى عندما رفعت عينى الى القائد الرومانى مستفسرا ، أومأ الرجل موافقا ..
ـ روما ، روما .. يا لضياعها .

ـ وتعمد النبيل أن يرفع صوته وهو يحدثنى بذلك ، حتى يسمعه كل الناس . لقد انتشر الخبر فى جميع أنحاء المدينة .
ـ كاروسيوس امبراطور بريطانيا ؟ وباقرار من روما . لابد وأن زوجى قد قضى نحبه .

وبالرغم مما جاهدت به هيلينا لتخفى آلامها وتتمالك نفسها ، الا ان كل كلمة نطقت بها ، وكل خالجة من خلجات وجهها ، كانت تنطق بالألم الدفين الذى تعتمل به نفسها .

الجزء الثالث : ٢٩٤ – ٢٩٦ بعد الميلاد

- ١ -

كانت بريطانيا كلها ، فى شغل بالأعداد للاحتفال بالعيد السابع لحكم كاروسيوس . نعم ، العيد السابع لحكم كان كاروسيوس فى ثلاثة أعوام منه امبراطورا لبريطانيا .

وكان المكان الوحيد الذى بدا انه لايشترك مع القوم فيما يعدون له ، هو قصر الامبراطور فى لندن . وكان كل من فى المدينة يعلم ان هذا الصف الطويل من النوافذ بالطابق الأعلى ، هو جناح الامبراطور الذى اختاره ليباشر فيه مهام منصبه ، مواصلا الليل بالنهار ؛ دون كلل أو ملل .

ولم يكن من غير المألوف أن يعقد وزير الخزانة اجتماعا قبل منتصف الليل بساعة . كما لم يكن من غير المألوف أن يصطحب الرجل معه رؤساء المصالح المختلفة وكبار موظفى وزارته . لقد كان هذا من الأمور العادية فى بلاد كاروسيوس .

وما أن وقع نظر تيوديمار ، حارس الامبراطور الخاص عليهم حتى قال متمتما فى صوت غير مسموع :

ـ عصابة مصاصى الدماء .

ودخل الامين الخاص تيودفيك غرفة مكتب الامبراطور ليعلن قدوم الوزير وأتباعه . ثم عاد بعد قليل ليطلب الى الوزير الدخول بمفرده . وبعد أن دخل هذا الى مكتب الأمبراطور ، همس الامين فى اذن الحارس الخاص قائلا :

ـ ما كنت أحب أن أحل محل الليكتوس فى هذه الليلة . ان أعصاب الامبراطور متوترة ، منذ أن قدم هذا الرسول بتلك الرسالة التى سلمها اليه شخصيا .

ـ الا تعرف شيئا عن هذه الرسالة . اظن انها كانت تنقل انباء سيئة وتنذر بالمتاعب .

وكان الليكتوس فى الوقت نفسه ، قد تقدم من المنضدة التى يجلس اليها الأمبراطور ، وادى له التحية الواجبة . غير ان

كاروسيوس لم يعره اى التفات ، ولم يرفع عينيه عن الرسالة التى كانت بيده .

وظل الليكتوس واقفا فى مكانه لا يتحرك . وكان يتساءل عن هذه الرسالة التى تبدو قصيرة فى حجمها ، والتى استغرقت من الأمبراطور كل هذا الوقت فى قراءتها . أم لعله يتعمد ذلك امعانا منه فى الضغط على اعصاب الليكتوس . ترى ماهو مدى ما اكتشفه من معلومات عنه وما اطلع عليه من حقائق .

ان ذلك لم يعد يعنيه فى كثير أو فى قليل . لقد أعد عدته ورتب امره ، وأحكم وضع خططه . واخيرا ، رفع كاروسيوس رأسه اليه قائلا :

ـ سأوجز لك القول . فلدى الكثير من المهام التى لا تسمح لى بالاطالة معك . لقد رفعت الى الكثير من الشكاوى . ولقد تجاوزت عنها لأنها ضد رجل احبه واثق فيه . ولكننى لا استطيع أن أمضى فى هذا الى النهاية . فقمت بتقصى الأمر بنفسى .

ـ عرفت ذلك يا مولاى .

ـ هكذا ؟ اذن فهذا ييسر الامور . لقد تجاوزت فى جمع الضرائب الحدود المرسومة لك بمراحل . ولن أسألك عن مصير هذه الأموال لأننى اعرف فى اى باب أنفقت .

ـ فى اى باب يا مولاى ؟ .

ـ فى اعداد جيش خاص بك قوامه خمسة آلاف مقاتل . ان هذا الجيش سيسرح فورا وينزع عنه سلاحه ويقصى عن بريطانيا فى مدى اسبوع على الأكثر .

ـ وهل انت واثق من امكان تنفيذ ذلك ؟ .

وكانت ابتسامته الصفراء اكثر من أن يحتملها الأمبراطور الذى نهض عن مقعده قائلا :

ـ كنت اعرف عنك التهور والحمق ، ولكننى لم اكن أتصور بحال ما أن حمقك يدفعك الى هذا الحد من الوقاحة . لقد اردت ان أجنبك عواقب حمقك وتهورك ، ولكنك زدت الأمور تعقيدا فلم تتح لى ذلك .. ليوديمار .

وكان الامبراطور مهتاجا منفعلا تتطاير عيناه شرراً وهو ينادي على حارسه العملاق « ليوديمار » .

وكان صوته وهو ينادي حارسه ، كزئير الأسد قوة واقتداراً .

ولكن حارس الامبراطور الخاص لم يجب النداء . وسمع الامبراطور في الغرفة الملحقة بغرفة مكتبه جلبة وضوضاء . ولاحظ أن الليكتوس لم يزل يبتسم تلك الابتسامة الكريهة البغيضة .. وأدرك كاروسيوس منها كل شيء . وأسرعت يده الى المنضدة الصغيرة حيث وضع سيفه . ولكنه لم يجده ، وشعر في الوقت نفسه بالم حاد في جنبه ، فاستدار ليتلقى الطعنة الثانية من الليكتوس . فترنح وسقط على مقعده الذي كان جالساً عليه من قبل . وسمع الليكتوس يقول له :

ـ من منا الأحمق ؟ لقد قمت بما كان عليك القيام به . القتال والعمل على استتباب الأمن والنظام في البلاد . والآن جاء دوري . دور رجل السياسة والحكم .

وكانت الضجة في الغرفة الأخرى قد سكنت تماما ، وأدرك الليكتوس أن المقاومة قد انتهت . وهل يمكن لليوديمار أن يقاوم خمسين من الرجال المسلحين المتزيين بزي المدنيين ؟ لقد قتل الحارس الخاص ، وقتل الأمين الخاص ، وتم حصار القصر برجاله في هذه اللحظة بالذات .

ووقف يتأمل الامبراطور وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ورآه بالرغم مما يجتازه من محنة ، يبتسم في وجهه ساخرا مشفقا . ترى ماذا يحمل هذا الرجل المحتضر على الابتسام ؟ تلك الابتسامة التي تعني على قدرها قهقهة عالية تهز أركان القصر بل المدينة بأسرها سخرية وتشفيا . وحاول الرجل المحتضر أن يتكلم ولكنه لم يستطع ، حيث تفجرت الدماء من فمه وفاضت على الأوراق الموضوعة على المنضدة . وأخيرا استطاع الامبراطور ان ينطق بهذه الكلمة بكل صعوبة :

ـ أحمق !

ثم فاضت روحه .

وتنفس الليكتوس الصعداء . لقد تحقق له النصر . ولكنه عاد ليحدق في الوجه الذي اكتسى بصفرة الموت ، وراعه أن الابتسامة



الساخرة المتهكمة لم تزل تعلو شفتيه الباهتتين . فاقترب من جثة الامبراطور فى حذر وكأنه لم يزل بعد على قيد الحياة . ووقع بصره على يد الأمبراطور التى لم تزل ممسكة بالرسالة التى كان متشاغلا بقراءتها عند دخوله . وكانت يد الميت قابضة على طرفها فى وضع يوحى بأنها اعدتله ليقراهاويطلع على ما فيها.وانحنى ليقرأ تلك الرسالة . وما ان فرغ من الاطلاع على ما بها ، حتىحاكى وجهه وجه الرجل الميت فى صفرته . ولم يستطع أن يكتم صرخة الذعر التى انطلقت من صدره .

وما أن سمع الموجودون خارجالغرفةتلكالصرخةحتىاقتحموا الغرفة متدافعين ، وما أن وقع نظرهم على الجثة الامبراطورية فى مقعدها ذى المسندين فى صورة الأسد ، وعلى الليكتوس وقد استقرت عيناه على الرسالة التى راح يتلوها ويعيد تلاوتها ، حتى تسمرت أقدامهم حيث كانوا واتسعت حدقات أعينهم دهشة وهلعا. انها كانت تحمل اعلان روما الحرب على بريطانيا .

- ٢ -

نهض ستون ضابطا من كبار القواد ، عندما دخل القيصر خباء القيادة . وبعد أن رد تحيتهم ، اتخذ مجلسه فى صدر المجلس المعقود لواؤه له . وكان حاملو الأعلام الاربعة ، الذين وقفوا فى الخارج ، يشهدون على أن روما فى هذه المرة ، لم تدخر وسعا فى حشد ما لديها من قوات لاعادة غزو بولونيا فى بلاد الشال .

وتداول مجلس الحرب المنعقد تحت رياسة القيصر ، فيماكان يعده من خطة محكمة لغزو بريطانيا .

وكان من المشاهد أن هذه الحملة ، فضلا عما زودت به من عدة وعتاد ، امتازت بأنها تستمد قوتها من محبة رجالها وتفانيهم فى لخدمة شخص القيصر ، زوج ابنة امبراطورهم مكسيما نيوس ، ومن المامه بكلصغيرة وكبيرة عنبريطانيا وعنمناخها وطبيعة شواطئها. كما كان من السهل التأثير فى أهالى بولونيا بعد مقتل امبراطورهم

السابق كاروسيوس واعتلاء قاتله اليكتوس العرش . اليكتوس الذى لم يحظ بما كان يحظى به كاروسيوس من محبة واحترام .

وتمت فى هذا المجلس الأخير جميع الاستعدادات لغزو بريطانيا وقهر اليكتوس فى عقر داره . ورسم القيصر خطته على أساس ان يبدأ الغزو عندما يحل الظلام ويتكاثف الضباب قائلا لقواده :

ــ ان خير هجوم هو الذى يكون فى ساعة لا يقدر العدو لهـا ذلك . عنصر المفاجأة والمباغتة هو خير سلاح فى يد الجيش الغازى . فلتترقبوا انتشار الضباب وتخطرونى بذلك حتى أصـدر أمرى بالهجوم :

ثم توقف القيصر قليلا ، ووجه كلامه الى القائد اسكليبيوداتوس قائلا :

ــ يجب أن تشعل النـــار فى جميع السفن بعد نزول جميع القوات على الشاطىء . ويجب أن يعرف الجميع ذلك ، ضباطا وجنودا . اننا سنغزو شواطىء بريطانيا لنتوغل فى البلاد ونستقر بها . لا نكوص ولا عودة ولا تقهقر . هذه السفن يجب أن تحـرق من آخرها !.

وابتسم القيصر لما لاحظه على وجوه الحـــاضرين من امارات الدهشة والعجب . ونهض محييا فى طريقه الى الخارج ، حيث امتطى صهوة جواده يتبعه مساعدوه من الضباط الشـبان الذين كانوا يشتعلون حماسا ، ويمثلون خيرة ما فى العالم كله من ثقافة عسكرية ودراية بفنون القتال .

وعندما توقف عند مقره الرسمى ، وسأل عن زوجته ، اخبره تابعه الخاص بأن الأميرة فى انتظار القيصر بغرفتها الخاصة .

وكان باديا من تحية مساعديه له وهو يدلف الى مقره بميدان القتال ، أنهم يحبونه محبة ترتفع بهم الى حد التقديس . وكان فى ذلك ما يكفى لأن يدخل السرور على قلبه وترتاح له نفسه . ولكن وجهه كان يكتسى بمسحة من الحزن ، عندما كان يخطو صــوب الغرفة التى تنتظره فيها تيودورا ، زوجته .

كان البيت على حاله ، لم يتغير فيه شيء الا بقدر ما مرت به يد الزمن ، خلال تلك السنوات العشر الطوال .

أجل ، عشر سنوات . انها لا تستطيع أن تصدق هذا ... ان الأمر يبدو وكأن كل شيء كان بالأمس القريب .

وراحت هيلينا تتجول فى ارجاء البيت من حجرة الى حجرة ومن ركن الى ركن ، تطوف بها ذكريات الماضى مع كل خطــوة تخطوها .

هاهى ذى تعود الى عشها الذى اضطرتها الظروف لان تجلو عنه . ان كل ما فيه يحدثها عن الماضى وعن فتــرة سعيدة من حياتها . الماضى ؟... أى ماض هذا ؟ انه تلك الاعوام العشرة التى لم تكن غير حلم ثقيل مزعج . ان حياتها فى هذا البيت متصلة . لقد رحل كونستانتيوس الى روما ، وهاهو ذا يعود منها . انهــا متصلة اتصال العمر نفسه .

ليس من شك فى أن اقدامها على التعجيل بالحضــور كان مجازفة فى تلك المرحلة من القتال الذى بدأ لاعادة غزو بريطانيا . انها ما ان سمعت بان الامبراطور الليكتوس يتجه غربا بكل ما لديه من قوات ليوجد ثغرة فى خطط هجوم الرومان ، حتى بادرت الى العمل ، فاصدرت أمرها لقوات المقاومة فى الشــمال والشرق بان تقوم بما هو مطلوب منها حسب مقتضيات المــوقف . اما هى وقسطنطين وهيلارى وفافونيوس ورفوس ، وحوالى العشرين من الخدم والأرقاء ، فقد اتجهوا جنــوبا . وبالرغم من أنها لا تعـلم بصفة قاطعة بان كونستانتيوس كان يقود هذه الحملة ، الا انهــا كانت واثقة فى قرارة نفسها من أنه هو قائدها ، ومادام هو قائدها فان اندحار الليكتوس أمر مفروغ منه .

ان كل ما كان يبلغها ما هو الا مجرد اشاعات يتناقلها الناس،

لقد بلغها منذ اربعة أيام نبأ سقوط بولونيا فى ايدى القـــوات الرومانية . ثم بلغها عقب هذا مباشرة ، ان الرومان قد احتلوا غرب بريطانيا ، فى ليلة عاصفة كثيفة الضباب . وهذا ما تستبشر به خيرا ، وما يؤكد لديها ظنونها ... الضباب الذى كان واســطة تعرفها الى كونستانتيوس ... انها ما أن سمعت من فافونيوس أن الغزو قد تم بين أستار الضباب ، حتى تأكد لديها أن زوجهـا هو قائد هذه الحملة ، فلطالما حدثها عن امكانيات هذا الغزو وعن خير سبيل يمكن أن يسلكه القائد المحنك قائلا :

مادمت القائد المنوط به الدفاع عن بريطانيا ، فانه لزام على أن الم بخير السـبل لغزوها ، حتى أحتاط للامر واتخـذ للامر عدته . وخير السبل لغزو هذه البلاد هو مهاجمة شواطئها عندما يتكاثف الضباب ويدلهم الظلام .

ووردت الأنباء بعد ظهر اليوم التالى ، عن نزول القـــوات الرومانية فى الجنوب . سمع بذلك فافونيوس من بعض اللاجئين ونقله الى سيدته ، التى ابتسمت راضية سعيدة ان هذا ما كانت تتوقعه فعلا ، وكانت منهمكة فى ترتيب منزلها واعادته لحالتـه الاولى من نظام ونظافة . فشد هذا النبأ من عزمها ، وواصـلت ما كانت تقوم به بنشاط وحيوية لتلقف أنباء النصر والفوز .

وارتدت ازهى ثيابها لونا ، وتحلت بأثمن حليهـــا ونفيس مجوهراتها . وتنقلت بين غرف منزلها ، وفى طرقات حديقتها ، سعيدة مستبشرة فى انتظار كونستانتيوس ... كونستانتيوس الذى تركها بالأمس فقط وسيعود اليها فى غده ... كما تريد أن تقنع نفسها بهذا ... انه لم يطل به البعد عنها ... لم تكن أعواما وشهورا ... ان هى الا ساعات ودقائق .

***

وبدأت القوات الرومانية تمر بالطريق العام فى الساعة الثانية بعد الظهر . وكانت القوات خليطا من الفرسان ومن المشاه ومن التوابع وعربات العتاد . ووقف فافونيوس يتأملها فخـورا فرحا بها . وبعد انتهاء مرور الطابور الاول ، اقبلت ثلة من الفرســان

والمشاة يتقدمها ضابط من الفرسان . ما ان اصبح امام الفيلا حتى انحرف فى اتجاهها . وخيل لفافونيوس انه لا يجيد الركوب ، وان الجواد قد جمح بالضابط قسرا عنه . فقال له متندرا :

ـ لقد عرف عن فرسان الفيلق السابع والعشرين انهم لا يجيدون الركوب . ولعلك كرهت أن تشذ منهم !.

فحدجه الضابط بنظرة قاسية ، بينما ازداد فافونيوس ابتساما وهو يقول له :

ـ اين كنتم . ولماذا تأخر قدومكم ؟!.

واشار الضابط للطابور آمرا بالتوقف عن مواصلة السير . ثم رمق فافونيوس بنظرة حادة وهو يسأله :

ـ من أى فيلق أنت ؟.

ـ من الفيلق العشرين بطبيعة الحال . الا تعرف أين انت ؟.

فابتسم الضابط بدوره قائلا :

ـ من الفيلق الذى كان يتخذ كاروسيوس من رجاله طعاما لافطارد . لعلك كنت عسر الهضم فنجوت بجلدك !.

وارسل ضحكة عالية ثم أردف قائلا :

ـ هل تقيم هنا ؟.

ـ انه بيت القائد كونستانتيوس .

ـ أعرف ذلك . انه القيصر كونستانتيوس الآن .

ـ انك حملت لى احسن الأنباء . بودى لو اعانقك واقبلك .

ـ من حسن حظى اننى مازلت ممتطيا صهوة جوادى . لقد حضرنا لنحتل المنزل والاسراع باعداده !.

ـ باعداده لمن ؟ للقيصر ؟!.

ـ اجل . ان قدومه مترقب من ساعة لاخرى . بل قل من دقيقة لاخرى . انه سريع الحركة !.

ـ ان زوجة القيصر تقيم هنا ايضا .

ـ أعرف ذلك أيضا . ولكن كيف علمت بقدومها . ان هـذا

سر لا يجب أن يعرفه أحد . فليكن ، افتح هذا الباب على مصراعيه حتى لا نضيع وقتا !.

ـ ماذا تعنى بقولك انها قادمة ؟ انها هنا فعلا !.

ولم يعره الضابط اهتماما ، ولم يكلف نفسه عناء الرد عليه، والتفت الى الطابور مصدرا أمره لرجاله بالتقدم . فأسرع فافوتيوس بمساعدة اثنين من الخدم وفتح الباب الخارجى .

واندفع الجنود الى الداخل ، وسمع فافونيوس فى الوقت نفسه وقع حوافر جواد يقبل مسرعا ، فالتفت ليرى هيلارى مقبلا وقد ارتسمت على وجهه ملامح الجزع ما لم يسبق أن رأى لها مثيلا .

واسرع هيلارى بالترجل عن ظهر جواده، واقبل على فافونيوس لاهثا . فبادره هذا متسائلا :

ـ ماذا بك يا رجل ؟ انك تبدو كشبح من الاشباح ! ماذا يحدث ؟!.

ـ كل شيء .. هل علمت بأمر هذه القوات ؟ ان كوريو فى طريقه الى هنا . هاهو ذا قد لحق بى ، هل تعلم ؟!

ـ علمت بماذا ؟!.

وقبل أن يتمكن هيلارى من الاجابة ، كان القائد كوريو قد وصل على رأس ثلة من الفرسان . وما ان التقت عيناه بعينى هيلارى حتى حملق فى وجهه متسائلا ، فأسرع هذا يقول له :

ـ سيدى .. ان الاميرة هيلينا وولدها بالمنزل !.

واستبدت الحيرة بفافونيوس لما رآه من شحوب وجه القائد، وازدادت حيرته عندما سمع القائد كوريو يوجه لهيلارى نفس السؤال الذى سبق أن وجهه له هذا من قبل :

ـ هل تعلم ؟.

وأسرع القائد كوريو يتولى الاجابة على سؤاله قائلا :

ـ كلا ، انها لم تعلم بشيء وانى لها أن تعلم ؟ لئن كانت قد علمت ، لما كانت هنا الآن .. هيلارى ، ترى ماذا نحن فاعلون كلا

فاجابه هيلارى ؟

ـ نصارحها بالامر . ان من حقها ان تعرف الحقيقة . السنة من رابى يا سيدى ؟!.

ـ انهما فى طريقهما الى هنا . فى طريقهما معا الى هنـا .. هل ادركت حقيقة الموقف ؟!.

ـ يا الهى . يارب الارباب ..

ـ ان وصولهما لن يستغرق اكثر من ربع الساعة . لن استطيع ان اقوم بهذه المهمة الثقيلة .

ـ اذن ، فسأقوم بها انا .

وترنح هيلارى من هول الموقف ، وكاد يسقط على الأرض لولا معاونة فافونيوس له . فشد القائد من قامته قائلا :

ـ بل انه من واجبى أن أخبرها انا بذلك . تقدمنى اليها !.

ولم يستطع فونيوس أن يفهم شيئا مما يدور حوله . فدخل فى الحديث قائلا :

ـ بحق الالهة مجتمعة ، هلا صارحتنى يا هيلارى بحقيقـة ما اسمع وأرى ..

ـ ان الحقيقة بشعة مروعة . ان السيدة ، آه ، ها هى ذى مقبلة . تمالك نفسك وتحكم فى اعصابك وصل معى .

ووقفت هيلينا فى مدخل المنزل ، ولم يكن نظرها قد وقع على اكوريو بعد ، ولا على هيلارى وفافونيوس . كانت تتأمل الجنـود وهم يفرغون حمولة العربات . ولاحظ الضابط الذى كان يشرف على قيام الجنود بعملهم ، وقوف السيدة بمدخل المنزل فحياهـا باحترام ، فردت له تحيته بايماءة من رأسـهـا ، دون أن ترفع عينيها عن الطنافس والآنية والمقاعد المحلاة بالعـاج ، والملابس الموشاة بالذهب ، وصحاف الفضة والذهب ، التى يحملهاالجنود إلى داخل المنزل .

ثم لاحظت أن الجنود قد وقفوا وقفة انتباه تحية لقائد عظيم . ولكن القادم لم يكن كونسـتانتيوس ، بل كان كوريو قادما فى اتجاهها وقد تأبط خوذته الذهبية .

واستقبلته مرحبة مبتسمة . وما ان اقتـرب منهـــا حتى لاحظت شحوب وجهه وتقطيب جبينه . ترى ماذا به ؟ هل هــو جريح ؟ هل هو مريض ؟ ماله يحماق فى وجهها هكذا ؟ لعلها هى المريضة لا هو ؟ لعلها هى الجريحة لاهو ؟وتأملت عينيهالحائرتين، انهما تشعان بنذير الخطر وما هو أشد هولا من الخطر . وسمعت دقات قلبها فى أذنيها . انها لحظة لقاء سعيدة لا تحتمل هـــذا التجهم . ترى ماذا جد من أمور ؟.

وانحنى الرجل أمامها محييا ، ووقف بين يديهـــا كما يقف الكاهن أمام المذبح متعبدا . ولكنها ليست من الآلهة . هل تراها ضحية لم تدرك بعد حقيقة مانزل بها ؟.

ـ سيدتى ، اننى أحمل اليك انباء خطيرة ـ هل تســـمحين بالدخول ؟.

ولكنها تقدمت منه قائلة فى هلع :

ـ هل هو زوجى ؟.

ـ انه سليم معافى .

ـ هذا هو كل ما يعنينى . ان كل شيء عدا ذلك يهون .هات ما عندك !.

وبدا الرجل يقدم لما هو بسبيل الادلاء به . بدا يحدثهـــا عن روما وما طرا على الحياة فيها من تغييرات . وعن الامبـــراطورين المتقدمين فى السن ، ورغبتهما فى الاطمئنان الى من يخلفهما على العرش ويبدأ فى تحمل مسئولية الحكم فى حياتهما والاضـطلاع بما يضطلعان به من مهام . وان لتنفيذ هذه الرغبة قد استتبع تعيين جاليريوس قيصرا على الشرق،وكونستانتيوس قيصرا على الغرب.

ـ .. يالها من انباء عظيمة . كونستانتيوس قد أصـــبح قيصرا على الغرب .. أين هى الخطورة فى تلك الأنباء ؟.

واستطرد كوربو فى مقدمته وتمهيده موضحا ان الامبراطورين قد رأيا وجوب ارتباط القيصرين اللذين وقع عليهما اختيارهما، برباط يكون له طابع خاص يضمن ولاءهما . ارتباط اقوى من كل قسم او يمين . ارتباط القرابة والنسب . وبناء على ذلكاضطر

القيصر جاليريوس أن يسرح زوجته الأولى ليتزوج من ابنة الامبراطور دقلديانوس ، الأميرة فاليريا .

واومأت هيلينا براسها تدعوه ان يسترسل ، وكأنها كانت تتوجس شرا مما ستسمعه بعد ذلك ، - ومما سيكشف عنه لها القائد كوريو - عما اضطر اليه القيصر الثانى ، قيصر الغرب ، واكتسى وجهها بما نم عما تعتمل به نفسها . واشفق عليها كوريو فراح يدور ويتردد ويتلعثم حتى قال فى كلمات متقطعة :

وقد اضطر القيصر كونستانتيوس أن يفعل ذلك هو الآخر ، وتزوج من تيودورا ابنة الامبراطور ماكسيميان . وهما فى طريقهما الى هنا !

فخطت هيلينا خطوة الى الخلف ، واضعة يدها على مكان القلب من صدرها . ووقف الجميع ، ضباطا وجنودا ، يحملقون فى وجهها الشاحب المكتسى بامارات الاسى . ان احدا منهم لم يسمع ما كان يقوله لها كوريو ، ولكنهم أدركوا من الموقف أن ما ينقله القائد للسيدة جد خطير . ووقف فافونيوس وقد غلت الدماء فى عروقه تحدثه نفسه بقتل اى انسان يعترض طريقه . وركع هيلارى يصلى ويبتهل . ولم يتمالك فافونيوس نفسه ولم يتحمل الموقف فانصرف واختفى من المسرح . ووقف كوريو جامدا فى مكانه لا يتحرك . وأخيرا تمكنت هيلينا من استعادة رباطة جأشها وقالت بنبرات ثابتة واضحة :

- هيلارى ، الى بولدى . سنرحل فورا .

فسمعت ولدها يقول :

- انى هنا يا أماه .

ورآه كوريو يخطو فيصبح بجوار والدته . ترى هل سمع قسطنطين شيئا مما دار من حديث ؟ لابد وانه سمع كل شيء . فانحنى القائد أمام الشاب قائلا :

- قسطنطين . لقد أصبحت وحدك المسئول عن حماية والدتك !

- اجل . اننى أعرف واجبى تماما .

وعاد فالونيوس ورفوس يقودان خمسة من الجياد بينهما ، وتأملت هيلينا القادمين ، ثم رمقت كوريو بنظرة لم تغرب عن مخيلته طوال ما عاش من سنين بعد ذلك قائلة :

ـ أرأيت يا كوريو ؟ ان العالم لم يعدم الاخلاص بعد !.

ولم يستطع القائد الكهل ان يتمالك نفسه ، فانتحب باكيا ، واعتلى الخمسة ظهور جيادهم . وهنا صاح كوريو بصوت جهوري آمر :

ـ انتباه .. السلام الامبراطوري .. سلام سلاح ..

وادى الجميع ، ضباطا وجنودا ، التحية العسكرية للسيدة الراحلة . وسمع كوريو أحد الضباط يعلق متسائلا :

ـ السلام الامبراطوري ؟!.

ـ أجل يا أجريبا . وليس أقل من ذلك .

ووصل الى مسامع القوم من بعيد ، صوت المنادى يعلن قدوم القيصر العظيم .

***

ـ ٢ ـ

ـ ان صديقا لي يلتمس الاذن بالمقابلة يا سيدتي .

بذلك اعلن هيلاري قدوم صديقه لهيلينا .

وظلت السيدة المتشحة بالسواد ساكنة لا تتحرك ولا تجيب ، وقد استقرت عيناها على الأسطح القرميدية التي تواجهها ، وهي تطل من نافذة غرفتها . انها نفس الأسطح ، ونفس الشارع ، ونفس الحياة . صديق ؟ ترى من عساه يكون ؟ فسألته :

ـ ماذا يبغي من مقابلتي ؟!.

ـ ليتشرف برؤياك يا سيدتي !.

ـ ليست بي رغبة لمقابلة أحد . ترى من عساه يكون ؟.

ـ آليانوس يا سيدتي »

ـ البانوس ... يالك من احمق، دعه يدخل »

وفي الواقع انها كانت تعجب من امر هـذا الرجل ومن مدى تأثيره على هيلاري . ووقع نظرها عليه وهو مقبل في الدهليز صوب حجرتها بقوامه النحيل وشعره الأبيض وردائه البسيط » ثم دلف الى غرفتها محييا باحترام لها وامتداد بنفسه . فردت تحيته واومأت اليه بالجلوس .

ـ ها قد تقابلنا اخيرا يا البانوس .

ـ ان كل شيء يتم بناء على مشيئة الله .

ـ وهل انت على علم دائما بما يريده الله ؟.

ـ اجل يا سيدتي . انه لا يريد الا الخير . ان مشيئته هي الخير .

ـ تأمل العالم وما هو عليه .

ـ يا مولاتي ، يجب أن نميز بين أمرين ، رغبة الله ، وارادة الله . انه يرغب في الخير ، ولكنه لا يفرض ارادته دائما ، لانه منح الخلق نعمة الارادة وهو يحترم حقوق هذه المنحة للانسان ولن يسلبها منه . لقد منحه العقل المميز والله لا يسترد عطيته بتدخله في توجيه ارادة هذا العقل . انه يحب الخير ويرغب فيه، وبوسعه أن يفرض ارادته وينفذها،ومن هنا تتعطل وظيفة العقل البشرى الموجه للارادة ، ومن هنا تتعطل هذه المنحة الربانية ، والله لا يسترد ما منح ..

ـ ومن يكون الهك هذا ؟. أهو اله اليهود ؟ الا يدعى اليهود بأنهم شعب الله المختار ؟ وهل يعقل أن يؤثر اله الجميع شعبا على آخر ؟ بئس ما يقول به اليهود ..

وراح البانوس يحدثها عن اليهود في ماضيهم الديني وكيف انقلبوا بعد ذلك قوما خاسرين . وماذا كان موقفهم من المسيح ابن العذراء الذي ورد ذكره في التوراة ، فحاربوه واضطهدوه وناصبوه العداء ، امعانا منهم في الكفر بعد أن هجروا أصول

لابنهم ، وأسمنه القويمة . ثم راح يبسط لها بعد ذلك تعـاليم المسيح وما يدعو اليه من محبة وسلام . فقالت له :

ـ لقد سمعت عن هذا المسيح الذى صلب فى آخر الأمر ..

ـ اجل يا سيدتى ، الرجل الذى صلب من اجلك ..

ـ من اجلى انا ؟ لعلك تهذى يا اليانوس !!.

ـ من اجلك ومن اجلى ومن اجل هيلارى ومن اجل ولدك .. من اجل البشر اجمعين .

ـ اية لعنة هذه ؟

ـ اللعنة التى نقاسى منها جميعا . لعنة تبرير الخطأ بقولنا « السنا من البشر ؟ لعنة افتراض الخطأ لبنى الانسان . الا ان هـذا الانسان كما تحدثنا عنه الاساطير ، قد مر بعصر ذهبى من ماضيه البعيد ، لم يكن يعرف فيه الا الخير والسلام . وفجـاة طرأ على العالم ما خرج بالبشرية من دائرة الخير هذه . وهذا الطـارىء يتمثل فى بدء معرفة الانسان لظاهرة التمرد والعصيان !.

ـ يالها من اسطورة شاعرية ..

ـ ان الأساطير هى أكثر القصص صدقا .

ـ ومن ذا الذى انباك بهذا ؟ اهو هيلارى ؟!.

ـ هيلارى ؟ سيدتى ، انه لم يسبق لى التحدث الى هيلارى فى شىء من هذا القبيل !.

فتدخل هيلارى قائلا :

ـ انه لم يسمع شيئا من والدك .

فتساءلت فيما بينها وبين نفسها عما يبغيـه هذا الرجل المسيحى بداهة من حديثه معها . وآثرت ان تحـدثه عن آلهتهم الوثنية . وكان الرجل يصغى اليها مبتسما احيانا ، مومئا براسه احيانا اخرى ، حتى انتهت من حديثها ، فشرع يقـارعها الحجـة بالحجة ، فى هدوء وتمكن مما يقول ، محـاولا أن يأخذها ببعض ما قالت هى نفسها . واختتم حديثه الطويل قائلا :

ـ لقد منح الله الارادة الحرة للانسان ومنحه حرية الاختيار، ولكن الانسان أساء استعمال هذه الارادة وتلك المنحة وسـقط

فى لجة الشر السحيقة . ولطالما تجاوز الله عن ذلك وحاول ان يهدى الانسان الى الصراط المستقيم . ولكن الانسان كان عنيدا سادرا فى غيه ، حتى انتهى به الأمر اخيرا الى صلب هذا المبعوث الذى ضحى بدمه على مذبح عناد البشرية . هل سبق لك ان شاهدت رجلا مصلوبا ؟!

ــ كلا . . . كلا . . .

وغطت عينيها بيديها من بشاعة ما تصورته

ــ انه لمنظر بشع حقا . ما اظن هناك ما هو أشد بشاعة من ذلك . قطعتان متعارضتان من الخشب نصبتا ليموت عليهما الرجل الما ويسفك عليهما دمه القدس . دمه الذى سال على الخشب ليروى شجرة الحياة . . .

فقفزت عبلينا من مقعدها قائلة :

ــ من عساك تكون ؟! من ذا الذى انبأك بهذا ؟ بكل هذا ، أم لعلك تسخر منى لا لئن كان الأمر كذلك فالويل لك .

وبيده النحيلة الرقيقة أوقفها البان عما كانت مسترسلة فيه قائلا :

ــ اننى خادم من خدم الله المخلصين وتابع من اتباع المسيح . والمسيح هو المحبة والسلام . ان من هو مثلى لا يسخر من احد ولا ينطق الا صدقا !.

ــ المحبة . . . او الحب . . . لقد آمنت به فى يوم من الأيام ككثيرات غيرى من النساء . ولقد انزاحت الغشاوة من فوق عينى ورأيت كل شىء بجلاء ووضوح . ان البشر لم يزالوا على حالهم الذى كانوا عليه . ولم تنظفهم دماء مسيحك من أدرانهم . ان مأساتهم تتكرر كل يوم على مسرح الحياة !.

واسترسلت تتخبط فى اقوالها متأثرة بظروفها الخاصة . وادرك من حديثها حقيقة حالها وما تقاسيه من آلام وثورة نفسية . لقد انكرها زوجها وجحد ابنه والقى بهما فى خضم الحياة . انها لا تفهم رسالة المحبة هذه وصارحته بذلك فى وجهه قائلة :

ـ ان رسالتك هى ليست لى . حيث لم يعد لى هدف فى هذه الحياة . لقد كنت اهدف للحب ، وللمجد !.

ـ بل ان رسالتى شرعت لمن هم على شاكلتك من البشر ، ولن ينفعك الا التشبث باهدابها . انها لم تكن لتنفعك من قبل ، لانك لم تكونى قد استكملت نضجك . لقد كنت تعيشين فى دنيا من الاوهام ، على اساس ان من حقك على الله ان يحقق لك ما تريدين بالصورة التى تبغينها . وهو السعادة فى عرف البشر . اى ان يخضع الله حكمته لمشيئتك انت !.

ـ لست ادرى الى متى ساظل مصغية لهذا الرجل ، ولماذا اقف لاستمع اليه ؟!.

ـ لانك قد اصبحت اهلا لتواجهى بالامر الواقع . لقد اقمت حياتك على اسس من الخيال ، وحجب قناع الأوهام الحقيقة عن عينيك . ولقد ضاع كل هذا وتبخر امام حرارة الحقيقة المرة . لقد كنت تحبين نفسك قبل ان تحبى غيرك . كنت تحبين المجد لنفسك . والآن ، وبعد ان ضاع كل ذلك من بين يديك ، سيعود اليك الحب الصحيح وستسترجعين المجد الحق . ستنالين اكثر مما كنت تحلمين به . عيشى لغيرك لتعيشى غنية . تلك هى رسالة الله . رعاك الله !!.

وانصرف الرجل فى هدوء كما اقبل . والتفتت هيلينا الى هيلارى وحاولت أن تتكلم . ولكنها ما أن تأملته حتى احتبست الكلمات فى فمها ولم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة . لقد رأت على وجهه وحول وجهه مالم يمكن أن يوصف بالكلمات او يعبر عنه بلسان البشر .

ومرت الايام سراعا فى البيت الصغير الذى عادت اليه الارملة إيتيا من رحلتها ، كما كان يتحدث بهذا أهالى فيرلوم . وكانوا قد عللوا غيابها بخشيتها من الغزو الرومانى فتوارت فى مكان ما .. وعادوا الى حديثهم عن ابن السيدة وابنة جيرانهم الصغيرة ميترفينا .

ـ لولا خطابك ، لما كنت قد استقبلتك يا كوربو .

ـ لقد قدرت ذلك فعلا يا سيدتى ، ولحسن حظى اننى كتبت

اليك فى آخر لحظة . انتى قادم اليك كصديق فحسب . لست رسولا موفدا أو مبعوثا خاصا . وهذا ما اردت أن أوضحه .

لقد كان كاذبا فيما قال .. وكانت هيلينا تعلم ذلك .. ولقد ادركت من بين سطور رسالته ، بل ومما كتبه فعلا ان لقدومه باعثا آخر غير مجرد زيارة صديق قديم يريد أن يطمئن على أحوال أصدقائه .

وبعد ان قدم احد الخدم النبيذ للضيف ، بدا هذا الحديث بشرح الموقف السياسى ، وعودة الحياة الطبيعية للبلاد . ثم تطرق من هذا الى الحديث عن القيصر قائلا :

ـ ان كونستانتيوس جد متعب،وكانت آثارالاجهاد بادية عليه عندما قابلته فى الأسبوع الماضى . ولقد سالنى ، بصفتى الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يقوم بهذه المهمة ، أن احضر لمقابلتك .

ثم استطرد فى حديثه عن اعباء الحكم وعن تنظيم الجيش و ...

ولكنها قاطعته قائلة :

ـ وقد أشفقت عليه مما هو فيه من حرج . كفانا حديثا عن بريطانيا ، فلم اعد أهتم بالأمور السياسية أو بالشئون العسكرية . ما هو نوع المهمة التى جئت لها ؟

ـ ان الأمر يتعلق بولدك !

ـ أرجو أن نتفاهم على الأسس قبل أن نخوض فى حديث آخر .. ان ابنى قد شب عن الطوق وبلغ سنا يستطيع فيه أن يختار لنفسه ما يشاء من حياة . ان شيئا واحدا أستطيع أن أؤكده لك . ان ابنى لن يقبل أية مجاملة من القيصر ؟!

ـ اعرف ذلك .. وكما قلت لك من قبل اننى قادم لحسابى الخاص.او بمعنى اكثر وضوحا ان ما ساقوله لك هو رأيى الخاص كصديق لكم . حقيقة ان كونستانتيوس يعلم بمجيئى ويعلم بأننى قادم لأحدثك بشأن ولدك ومستقبله ، الا انه لم يعين لى شيئا أو يكلفنى بحديث محدد .

ـ أى مستقبلٍ لقسطنطين ؟ . ان ولدى لا مستقبلَ له .

ـ لا ، لا .. كيف تقولين هذا ؟ . لندع القيصر جانبا الآن .. فليس القيصر بالامبراطور ، وليست بريطانيا بالامبراطورية .. تلك هى حقيقة الأمر يا سيدتى .. فليلتحق ابنك بجيش الامبراطورية الشرقية . ان لى أصدقاء فى بلاط القيصر جاليريوس . وانا زعيم لك برعاية امره هناك .. ماذا ترين فى ذلك ؟

وأطبقت هيلينا عينيها حتى لا يرى الرجل الجالس قبالتها ما ينعكس فيهما من انفعالات . وراحت تقلب الأمر على كل وجوهه . ان تلك هى خطة كونستانتيوس بدون أدنى شك . ولكن لماذا يحرص على ابعاد ولده الى الشرق . ايريد ان يجعل منه رهينة هناك أو اسيرا ؟

ولكن لا .. انها لا يجب ان تخضع تفكيرها لأهواء نفسها .. كلا .. ان هذا هو المخرج الوحيد لقسطنطين . هناك مجال خدمته ومستقبله .. هذا صحيح .. الا ان هذا يعنى فى الوقت نفسه الوحدة لها .. انها تجرد شيئا فشيئا من كل ما يجعل للحياة معنى فى عينيها .. وأخيرا قالت للقائد :

ـ سنعرض عليه الأمر .. أليس كذلك ؟

وبعثت فى طلب ابنها الذى عاد بعد قليل بقوامه الفارع الطويل وشبابه الغض .

ـ هل ارسلت فى طلبى يا أماه ؟

ـ اجل .. لدينا ضيف يا قسطنطين .

فانحنى الشاب محييا وهو يقول :

ـ سبق لى ان تشرفت بالقائد كوريو .. لقد كانت لنا مغامرة معا .

وآثرت هيلينا ان تترك ناصية الحديث للقائد المحنك القديم . فأحاطت ابنها علما بما جاء الرجل من أجله وتركت الباقى لكوريو .

وتبادل الرجل الحديث مع قسطنطين ، واستشف من حديثه طموحه ، وتبين شروطه ، وادرك انه لن يرضى الا برتبة قيادية

بالجيش . ووعده بالكتابة الى أحد ضباط الجيش العظام فى الامبراطورية الشرقية . واختتم حديثه معه قائلا :

ــ اذن فسأكتب الى ليسينيوس غدا .. وأظن انه لا حاجة بك لانتظار الرد . وارى ان ترحل الى بيزنطة فى الأسبوع القادم ، وننتظر رد ليسينيوس هناك . وأنا مطمئن الى موافقته على ما سأطلبه منه .

وتردد قسطنطين قليلا قبل ان يجيب قائلا :

ــ سأسافر الى بيزنطة فى مدى أسبوع يا سيدى .

ــ عظيم .. عظيم .. سأنصرف الآن .. وسأقضى الليل فى فيرلوم ، ثم اعود ادراجى فى الصباح .

ثم نهض من مقعده .

ــ هل لى ان أستفسر منك عما تعده للمستقبل ؟

بذلك سألته هيلينا قبل أن ينصرف .

ــ اعده للمستقبل ؟ لقد قاربت السبعين من عمرى يا سيدتى ، وقضيت فى منصب القائد ثلاثين عاما . ان مشروعاتى فى المستقبل هى أن اقضى أيامى فى زراعة الخضراوات فى ضيعتى الصغيرة بجبال سابينا .

ــ ان وظيفة القائد للرجل الامين ما هى الا وظيفة القمة بالنسبة اليه .

ولم يعقب القائد الأمين بشىء . وفضل أن يحييهما وينصرف ، تاركا الأم وابنها وحيدين .

ــ انه موفد من طرفه ؛ أليس كذلك يا أماه ؟

ــ انه جندى . وليس على الجندى الا الطاعة . ولقد أوشكت أن تصبح جنديا ، أليس كذلك يا ولدى ؟

ــ اجل ، ولكن .. لست من جنود ...

ــ كلا .. ستكون من جنود القيصر جاليريوس .

ــ اماه .. هناك امر لا تعرفينه ، وقد آن الأوان لأطلعك عليه .

ــ ترى ماذا عساه أن يكون هذا الأمر يا قسطنطين ؟ .

ـ اننى لن أستطيع أن أرحل هكذا بكل بساطة ..

ـ انه مستقبلك يا ولدى .. مستقبلك الذى يجب أن يوضع فوق كل اعتبار .

ولكنها تأملت وجهه وادركت ما ارتسم عليه ، ان الأمر غير مابدا لها فى أول الأمر . وسمعته يقول لها :

ـ اننى افكر فى حياتى المستقبلة .. اننى أريد أن أصطحب معى ميترفينا كزوجة لى .. اننى احبها ، وأرجو الا تضعى العراقيل فى سبيلنا وفى سبيل سعادتى .

ـ كلا .. اننى لن افعل شيئا من هذا القبيل .. لماذا لم تأت بها لتقابلنى ؟.

ـ هذا ما فعلته فعلا .. انها تنتظر بالخارج .. هل أدعوها ؟

ـ أجل .. هيا وأسرع ..

وعاد بها قسطنطين بعد قليل . فتاة رقيقة تخطر فى مشيتها ولا تخطو . رشيقة خفيفة الحركة . حتى تحيتها عندما انحنت كانت صورة فنية رائعة الحسن .

وتأملتها هيلينا قليلا .. ولم يعجبها منها جمالها أو أدبها بقدر ما اعجبها منها ايمانها بنفسها وثقتها بانها خلقت لتسعد غيرها . فتلقتها بين ذراعيها وضمتها الى صدرها فى حنان وتقدير .

الجزء الرابع : ٣٠٣ ـ ٣٠٦ بعد الميلاد

ازدحمت القاعة الكبرى فى قصر الحاكم بالضباط والقواد ، وبجميع موظفى الدولة الكبار والأمناء ورؤساء المصالح . وكانت أعصاب هذا الجمع متوترة ، لأن احدا منهم لم يكن يعرف شيئا عن السبب فى هذا الاجتماع ، وان كان باديا للجميع ان الأمر على جانب كبير من الأهمية ، لما تناقله البعض عن هذا الرسول الخاص الموفد من قبل الامبراطور ، والذى وصل فى صباح اليوم نفسه ، ولم يكن يعلم عن السر فى حضور هذا المبعوث الخاص - فيما عدا القيصر - الا سترابو السكرتير الخاص للقيصر . ولو لم يكن ما تناقله القوم عن هذا الرسول الامبراطورى ، لرجحوا أن الدعوة الى هذا الاجتماع كانت كسابقاتها ، لاعلان ميلاد الطفل السادس للقيصر ، الذى رزق بخمسة اطفال فى خلال الثمانى سنوات لزواجه من الأميرة تيودورا .. ولكن لا .. ان الأمر أجل من ذلك وأعظم خطرا .

وقد بدت دلائل ذلك ، على وجه القيصر عند دخوله القاعة ، ولم يكن فى معيته الا سكرتيره الخاص سترابو ، وفيليوس ، كبير الموثقين ورئيس الهيئة القضائية . اذن فالأمر يتعلق بقانون جديد ؟ ان كبير الموثقين لا يحضر مثل هذه الاجتماعات الا اذا كان هناك ما ينبىء عن سن قانون جديد !

واتخذ كونستانتيوس مجلسه على العرش المعد له ، وكان شاحب الوجه بادى الضيق والاجهاد ، واتجه بكلامه للحاضرين - وكانوا وقوفا - قائلا :

- اخوانى .. لقد تلقيت اليوم رسالة هامة من جلالة الامبراطور دقلديانوس ، بناء على ما رفع الى جلالته من زميلى القيصر جاليريوس ، وسيحيطكم علما بها وبمحتوياتها فيليوس كبير الموثقين .

وتلا كبير الموثقين على الحضور الرسالة الامبراطورية . وفهم الجميع منها ان الأمر خاص بجماعة المسيحيين وحركتهم فى

الشرق . وانتهت الرسالة بسلسلة من الأوامر والقوانين التي تقضي بأن يسلم رؤساؤهم الدينيون كل ما لديهم من كتب ومخطوطات . وعلى الهيئات المختصـــة أن تقوم باشعال النار في جميع هــذه المخطوطات والكتب علنا وفي حضور رجال الدين المسيحيين .. يضاف الى ذلك مصادرة جميع أملاك الكنيسة المسيحية وبيعهـــا بالمزاد العلني واضافة حصيلتها للخزانة الامبراطورية .. هذا مع تحريم جميع وظائف الدولة على المسيحيين وكل من ينتمي اليهم . وليس لأي مسيحي الحق في أن يلجأ الى القضاء ، اللهم الا اذا كان متهما او مدعى عليه . كما يجب هدم جميع الكنائس من أساسها .

وبعد أن انتهى كبير الموثقين من تلاوة الرسالة والقوانين المرفقة بها نهض القيصر قائلا :

ـ لقد استمعتم الى الرغبة الامبراطورية . وسيقوم مكتب الأمناء بتبليغ هذه الأوامر الى المختصين لاتخاذ اللازم نحو تنفيذها وسابدأ بتنفيذ هذا الأمر في بلاطي وفي المصالح المتصلة بالقصر . واني لأعلم أن بعضكم من انصار هذا الدين الجديد . ولقد قررت أن أمهل هؤلاء يومين ، يقررون فيهما العقيدة التي يختاورنها لأنفسهم . وعليكم جميعا أن تعودوا للاجتماع هنا بعد باكر في نفس هذا الميعاد .. اخواني ، ان تقرير مصيركم موكول اليكم .

ثم القى بتحيته للحاضرين وانصرف .

وانفرط عقد الحاضرين . ولم يعلق أحدهم بشيء على ما سمع بالرغم مما اكتست به وجوههم من غم وقلق وأسى .

وعاد القيصر الى غرفة مكتبه ، وطلب عرض الملف السري عليه، وأمضى برهة في مراجعته .

ومرت الثماني والأربعون ساعة ، وعادت الجمعية للانعقاد ، واضيف الى القاعة مذبح اقيم فوقه تمثال نصفي للامبراطور .. وبعد أن نطق القيصر ببعض كلمــات قليلــة قام الى المذبح وأدى الطقوس الوثنية المتعارف عليها . وحذا كبير الموثقين والسكرتير الخاص حذو القيصر . ثم قام الحرس الخاص بما قام به الأولون .

وبعد ان استقر القيصر على عرشه ووقفت حوله حاشيته ، طلب من المسيحيين الذين وجدوا بين الحاضرين ان يتقدموا خطوة الى الأمام . وخيم على القاعة سكون مطبق ثقيل . وبعد برهة وجيزة تقدم عدد من الرجال الى الامام ، واحدا بعد الآخر . وامرهم القيصر أن يتنحوا جانبا . ولم يستطع احد ان يتبين من ملامح وجهه ما يعتمل فى نفسه . بل ولقد بدا وجهه جامدا جمود تمثال الامبراطور الرخامى المنصب فوق المذبح . وران الصمت على جميع الحاضرين . انه فى الواقع اجتماع لم يسبق له مثيل .

وامر القيصر سكرتيره بتدوين اسماء المتنحين جانبا بعد ان بلغ عددهم اكثر من الستين . وبعد ان حصر السكرتير اسماءهم ، قام بتسليم الكشف الى القيصر ، الذى قام بدوره بمراجعته على الكشف الآخر الذى بيده ، ثم قال :

ـ ثمانية عشر اسما غائبة من هذا الكشف .

وبدأ يتلو الأسماء المشار اليها .

ولاحظ كل من فيليوس وسترابو انه أغفل تلاوة اسم واحد فقط . واتخذ المنادى عليهم الجدد ركنا آخر لهم ، واصدر القيصر امره بان تبدأ الطقوس الدينية بالنسبة لسائر الحاضرين ، الذين يتعين عليهم ان يتقدموا من المذبح متعبدين . وجلس يراقب صفوفهم فى هدوء . وتصاعدت سحب الدخان وتكاثرت بازدياد الملقين بقرابينهم الى النار .

ولم يبق بعد ذلك غير الجماعتين المنادى على أسمائهم . وتقدم الضابط سارتو الى الأمام معلنا رغبتهم فى اعلان عدولهم عن دينهم الجديد ورغبتهم فى العودة الى حظيرة ديانتهم القديمة التى يمثلها شخص الامبراطور المقدس .

وأومأ القيصر برأسه موافقا ، سائلا الضابط أن يبدأ بذلك فعلا . وتقدم الضابط وتبعه الحاضرون من المسيحيين واحدا بعد آخر . وكان هؤلاء جميعا من الجماعة الثانية ، جماعة الثمانية عشر التى نودى عليهم .

أما الجماعة الأولى التى كانت قد تقدمت منذ بدء الاجتماع من تلقاء نفسها ، فقد ظلت فى مكانها لا تتحرك ولا يتقدم منها أحد . وراح القيصر يحدجهم بنظراته ، وأخيرا نادى على الضابط فلافيوس دوتيلوس ، الذى تقدم خطوة من جماعته قائلا للقيصر :

ـ سيدى ، لن أستطيع أن أقوم بشيء من هذا القبيل .. أنا مستعد أن أقتل فى سبيل الامبراطور ، لا أن أعبده !»

وتلاه ثان وثالث ورابع ، وكلهم رافض أن يكفر بدينه الجديد ولقد قال له أحدهم :

ـ لقد قيل : اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !

ولم يعره كونستانتيوس التفاتا ، بل نادى الاسم التالى . وهكذا تكرر الرفض وتكرر الاعتذار .

وأثناء ذلك ، فتح باب القاعة ودخل منه القائد كوريو . وتعلقت أنظار الحاضرين به ، حتى تقدم من العرش وأدى التحية الواجبة، ثم استدار لينضم الى صفوف المسيحيين . وكان بادى العلة ، اذ كان الجميع يعرفون انه كان مريضا خلال الأسبوعين السابقين ملازما لفراشه .

وبعد فترة من السكون والرهبة ، نهض القيصر عن عرشه وحيا الحاضرين منصرفا . ولكنه سرعان ما توقف عند باب القاعة مستديرا الى الجمع المحتشد فى القاعة قائلا فى صوت قاطع :

ـ لقد كان هذا الاجتماع محكا لولاء رجال الامبراطور من عسكريين ومدنيين .

ولأسيا على ما اتضح لنا فى هذا الاجتماع ، فليعلم كلّ من يحيطون بالضابط سارتو ، انهم مفصولون من وظائفهم .

ثم ولى الحاضرين ظهره مغادرا القاعة ، وساد بعد خروجه هرج ومرج وذعر وأسى . وطغت أصوات المخلصين وهم يهتفون بحياة الامبراطور وحياة القيصر .

وارسل القيصر فى طلب كوريو . وتوجه هذا لغرفة مكتبه

القيصر الذى استقبله مرحبا وصرف الحاضرين لينفرد به .. ثم دعاه للجلوس قائلا :

ـ ما كان يجب ان تغادر فراش المرض .

ثم قدم له كأسا من النبيذ مستطردا :

ـ اذا ما جن جنون الاباطرة ، فليس اقل من أن يحافظ القياصرة على اتزانهم .

ـ او افهم من ذلك انك لا تقر هذا القانون ؟.

ـ ليس فى ذلك من شك يا كوريو . الا أننى مضطر الى تنفيذه . وسأبذل قصارى جهدى للتحايل على حرفيته .

ـ هذا ما كنت انتظره منك .

ـ ولكن خبرنى ، كيف اتجهت هذا الاتجاه المسيحى ؟ . انت بماضى اسرتك الحافل العريق . اننى لاذكر ...

ـ وهل يحول ذلك بينى وبين الاقتناع بالحق عندما يعرض لى هذا ؟.

ـ الحق .. الحق ـ انه فلسفة جديدة ـ فلسفة هؤلاء المسيحيين ، ولكن ...

ـ انها ليست بفلسفة او نظرية . انها الحق المجرد والواقع الصحيح . وما ان يحيط به المرء خبرا ، حتى يتصرف فى حدوده ويقتنع به .

ودخلا فى مناقشة دينية هادئة ، وخاضا فى حديث طويل دافع فيه القائد كوريو عن وجهة نظره المسيحية ، وكان كونستانتيوس يساجله فى بعض ماشاع وذاع عن معجزات المسيح وعن الخير والشر، وتصوره أنه يجب أن يكون لكل منهما اله . وحاول كوريو أن يقنعه منطقيا بأن الخير من عند الله أما الشر فمن عند الانسان الذى تنكب طريق الخير السوى . ثم عرج القيصر على أهم مابشر به المسيح ، وهو المحبة والسلام والعدالة ، وقال فى هذا معقبا :

ـ دعنا من تلك المعجزات . ان هذه المبادىء التى دعا اليها المسيح هى المثل العليا للانسانية الحقة اذا ما سادتها وطبقت

أسسها . الا انني أرى أن ذلك من الصعوبة بمكان . انني لا أوافق مثلا على القانون القاضي بهدم الكنائس وحرق الكتب والمخطوطات ولذلك سأعمل من ناحيتي على التحايل على تنفيذ هذا بقدر الامكان.

ـ يسرني أن أسمع ذلك منك . وهناك عدالة ينقصك أن ...

ـ كلا ، لاتسترسل . فأنا أعرف ماذا أنت بقائل . لاتذكرني بهذه النقطة السوداء في حياتي والتي تنكبت بها طريق العدالة السليم . وبهذه المناسبة ، فانني لم أوف لك قدرك من شكر على ماقمت به من أجلي من خمس سنوات خلت ، في فيرلوم .

ـ لم يكن بك حاجة لأن تشكرني . لقد فعلت ما فعلت من أجلها هي ، وليس من أجلك أنت ! .

- ٢ -

كانت العربة تسرع في الطريق الى فيرلوم . وكانت تقل هيلينا في عودتها بعد ان زارت قبر والدها ، كما اعتادت هذا في كل عام ، وحيث كانت تجد المئات من الناس يحجون اليه داعين . انهم جميعا لم ينسوا هـذا الملك الذي كان أبا للجميع ، ولم تمح ذكراه من قلوبهم .

وما ان توقفت العربة بباب منزلها ، حتى اقبل فافونيوس مبتسما محييا . فبادرته مستفسرة :

ـ كل شيء على ما يرام يا فافونيوس ؟.

ـ أجل ياسيدتي .

ـ هل من رسالة من ولدي ؟.

ـ كلا ياسيدتي .

وهبطت من العربة ، وحيث روفوس الذي كان ينتظرها عند باب المنزل الداخلي ـ

وارتقت الدرج وهي تتساءل عن السبب في تأخر ورود رسائل من ابنها أو من زوجته ميترفينا ، التي كانت تكثر من الكتابة اليها

بالرغم من العناية بولدها كريسبوس ، الذى بلغ الخامسة من عمره تقريبا ، أو يرجع ذلك الى انتظارها لمولودها الثانى ؟ أم لعلها قد وضعت مولودها الثانى فعلا ؟ ترى أين قسطنطين الآن ؟ لعله عند الحدود الفارسية ، حيث لا يمكن أن يجد الرجل فسحة من الوقت للكتابة • وأخيرا رأت هيلارى يهرول لتحيتها • فسرت لمرآه ، بعد أن افتقدته فى هذه الرحلة لأول مرة • وانها لتذكر اعتذاره عن عدم مرافقتها ، وانها لتدرك السر فى تخلفه هذا • لقد ازداد اندماجا فى مسيحيته وتعمقا ونشاطا فى دينه الجـــديد • ولكنها لاحظت فى الوقت نفســـه ، أن ثيـــابه ويديه ووجهه كلها متسخة ، فلما استفسرت منه عن ذلك قال لها :

ـ لقد كنت أعاون فى اطفاء النار ياسيدتى •

ثم عرفت منه أن الحريق كان فى بيت للاجتماعات المسيحية اشعلت النار فيه قوات الحكومة • فنصحته بأن يعتدل فى نشاطه حتى لايتعرض لسخط أولى الأمر ، وبينت له مدى مافى ذلك من مخاطرة • فاستأذن منها ليغتسل ويستبدل ثيابه ، شاكرا لهـــا تحذيره وحدبها عليه •

ولما عاد ، وجدها تجلس قبالة النافذة تحدق فيما أمامها من فضاء • فى فضاء تجد بين أجوازه حقب الماضى وذكريات حيـــاتها التى ملئت سعادة وهناء حينا ، وشقاء وضنى حينا آخر •••:

ـ سيدتى ••• سيدتى ••• لقد سعدت بخدمتك ستة عشر عاما طوالا ، وقد آن الأوان لاكشف لك عن بعض ما كان ينطوى عليه تفكير والدك وبعض معتقداته •

وظلت فى وضعها الذى وجدها عليه مولية له ظهرها • وأخيرا تحركت قائلة :

ـ والدى ؟• ماذا تعنى ؟!•

ـ أسطورة الخشب الحى يا سيدتى • قصة شجرة الحياة !•• واستعادت ما كان يقوله لها والدها :

ـ ان فى الخشب معنى الحياة ، وفيه أيضا معنى الموت • لقد

قدسته أجيال لأنه رمز للحياة قائما على جذوره ، وانطلقت فى أثره أجيال تبحث عن سر الحياة فيه - انها قصة لا بداية لها ولا نهاية • قصة لازمت والدها طوال حياته ، وكانت آخر مافكر فيه ودار حولها حديثه قبيل مماته :

ـ أنت وقسطنطين !•

نعم ، لقد قرن اسمها باسم ابنها قائلا :

ـ أنتما معا ستهتديان الى شجرة الحياة !•

واستطرد هيلارى فى حديثه قائلا :

ـ انه لم يستطع أن يتم لك هذه القصة ، لأنه لم يكن يعرف نهايتها كما عرفتها أنا •

ـ وماذا عرفت عنها ؟•

ـ انها قصة قديمة منذ الأزل يا سيدتى • لقد سمع بها الملك كويل - سمع بها من اهل الشمال ، وسمع عن شجرة الحياة فى مصر ، فتخيلها امامه بطريقته الخاصة ، ولكنه لم يعرف ما عرفته أنا وما سأرويه لك الآن !•••

ـ ومن ذا الذى عرفك بها ؟!

ـ أليانوس ، الذى سمعها بدوره من القوم فى بلاد الشام عندما كان ملحقا بالجيش •

ـ اذن ، هات ما عندك ••• بودى أن أعرف تفاصيل هذه القصة ؟!•

وراح يقص عليها قصة الشجرة التى كانت بقصر الملك سليمان الحكيم ، والتى يرجع تاريخها الى يوم وفاة آدم ، حين نبتت من بين أجداث قبره • وكيف أن الملك سليمان بالرغم من واسع علمه وعميق حكمته لم يكن يعرف سر هذه الشجرة حتى قدمت لزيارته ملكة سبأ ، التى كانت تعرف هذا السر نقلا عن أجدادها وأسلافها جيلا بعد جيل ، فكشفت له عن سر الشجرة وما لها من قدسية • مما حدا بالملك الى اقتلاعها ودفن اخشابها فى باطن الأرض بالقرب من تخوم المعبد • وملئت الحفرة ماء كانت تغتسل فيه الماشية التى تقدم قرابين جيلا بعد جيل •

وعندما حان الحين نضبت مياه الحفرة وجفت وانحسرت عن الخشب مرة أخرى •

ـ ومتى كان ذلك ؟!٠

ـ عندما آن الأوان لأكبر تضحية فى الوجود ٠ تلك التضحية التى تتضاءل أمامها كل تضحية أخرى ولا تكون بعدها الا رمزا ٠ ومن هذا الخشب المجدب أقيم أشرف صليب فى الوجود ٠٠٠ هذا الصليب الجاف الذى سالت على جوانبه الدماء الطاهرة المقدسة فجعلت منه شجرة الحياة ٠٠٠ شجرة الحياة التى كان يحس بها والدك ولم يدرك لها كنها ٠

ـ وهل صدقت هذه الرواية ؟٠

ـ اننى أومن بما تعنيه ، أجل ٠ أومن ٠ بما قيل قبلها وما يقال بعـــدها ٠

أومن بما انحدرت اليه الانسانية من اسفاف فى الظلم وامعان فى الكفر وبعد عن نهجها القويم ٠ أومن بأن تعاليم هـــذا المسيح تنتشر من قرية الى قرية ومن قطر الى قطر حتى يظهر الحق الأكبر !٠

ثم صارحها هيلارى بأنه قد رسم قسيسا ٠ ولم تفاجأ بهـــذا النبأ الذى كانت تنتظره وتترقبه ، بعد أن اعتـــذر لأول مرة عن مرافقتها فى زيارتها لقبر والدها ٠ ولما استفسرت منه عن ذلك،سرد على مسامعها ما مر به من طقوس فى هذا الحفل الصغير الذى أقيم بالبيت الذى أشعل رجال السلطة النار فيه ٠ وأردف قائلا :

ـ كان هذا البيت بمثابة كنيسة عبادتى ٠ وكان محل عبادتنا واجتماعنا ٠

ـ ألم يعد لديكم بعد ذلك مكان تجتمعون فيه ؟!٠

ـ سنجتمع عند ألبانوس ، بالرغم من ضيق بيته ٠ وان اجتمعنا مرة فلن نستطيع أن نوالى اجتماعاتنا بصفة مستمرة خشية اثارة شكوك رجال السلطة المحليين ، لذلك سنحرص على تغيير أماكن اجتماعاتنا ٠

ودهش الرجل اذ سمعها تقول له :

ـ ان هذا البيت تحت تصرفكم ياهيلارى ٠ لست مسيحية ، وما أظننى ســـأكون كذلك ، ولكننى أمقت الظلم والاستبداد ٠ متى ستجتمعون غدا ؟!٠



- عند الفجر يا سيدتى ، لماذا ؟»

- لأننى ساحضر هذا الاجتماع لأرى وأسمع طقوسكم !»

وعند الفجر ، ذهبت مع هيلارى لحضور الاجتماع الذى أشار اليه فى منزل البانوس • واستقبلها البانوس وأدخلها حجرة قد اكتظ فيهـــا المجتمعون • ولم يعر القوم الســـيدة الدخيلة عليهم أى التفات ، بل كانت أبصارهم معلقة بالبانوس فى خشوع وترقب لما سيقول ولم يكن بالحجرة من ضوء ، الا من هـذا الضوء الخافت المنبعث من أربعة مصابيح منتشرة فى ارجاء المكان • وما كاد المقام يستقر بالمجتمعين ، حتى اقتحمت الباب عليهم ثلة من الجنود مهددة متوعدة • فأسرع البانوس يصدر امره باطفاء المصابيح ، التى سرعان ما خمدت شعلاتها ، وعم الظلام المكان واختلط الحـــابل بالنابل وتعالت صيحات الجميع • وعنــدئذ طلب البانوس من هيـــلارى أن يسرع بمغادرة المكان من باب خلفى بعد أن سلمه قدحا ذهبيا أطبق عليه بيده ثم أمسك بيد سيدته وانطلقا من الباب الخلفى •

وكانت الدنيا ظلاما ، وأوغلا فى الســـير حتى اذا ما أصبحا على مقربة من المنزل ، اعترض سبيلهما قاطع طريق استلفت نظره بريق القدح الذهبى الذى كان يحمله هيلارى بيده • فسأله أن يسلمه اياه • ولما رفض هيلارى أن يستجيب له ، وازداد تشبثا به ، قرر الرجل أن يستعمل معه القوة • وكان المفروض أن يلقى هيـــلارى بما فى يده حتى يستطيع أن يقاوم الرجل بكلتا يديه • ولكنه ضم ما يحمله الى صدره ، وراح يدافع عن نفسه بيد واحدة ، الأمر الذى مكن منه غريمه • ثم أبصرت بنصــــل خنجر يرتفع فى الظلام ، فأسرعت الى حيث يتماسك الرجلان ، ولكنها وصلت بعد أن تمكن اللص من طعن هيلارى ثم فر هاربا • وساعدت هيلارى على النهوض من عثرته ، وعاونته حتى بلغا باب المنزل الذى فتحه لهما أحد الخدم وأسرع ليخطر فافونيوس بما وقعت عليه عيناه • وأقبل فافونيوس مهرولا وحمل هيلارى الى فراشه • ثم اندفع فى استدعاء الطبيب !

ووقفت هيلينا الى جانب فراش الرجل المحتضر تتأمله فى أسى وحسرة • ورأته يحرك أهدابه وينظر اليها شاكرا ، ثم يمـد اليها

ذراعه بيده التى كان يضمها الى صدره • ولاحظت انه يحرك شفتيه فركعت على ركبتها حتى تستطيع أن تتبين ما يقول • وكان كل ما استطاعت أن تتبينه تلك الكلمات المتقطعة :

ـ احتفظى ••• فى ••• امين •

وكان هذا الشىء الذى يقدمه لها ، هو القـدح الذهبى بغطائه الجلدى • فمدت يدها وتناولته من بين أصابعه فى اللحظة التى فارق فيها الحياة •

وظلت راكعة بجوار فراشه مطبقة بيدها على القـدح الذهبى محدقة النظر فى وجهه الذى اكتسى بصفرة الموت ، وقد علت شفتيه ابتسامة الرضا والبراءة والطهر •

وأقبـــل فافونيوس ، وســـاعدها على النهوض ، ثم مشت الى غرفتها تنتابها مشاعر الحزن والأسى والهم الدفين • وما ان اغلقت الباب حتى نزعت عن القدح الغطاء لتجـــد فيه رغيفا من الخبز غير المخمر •

وحدثت نفسها قائلة :

ـ لقد منحنى والدى ميلارى ـ ومنحنى ميلارى هذا ـ انى سأحتفظ به ما حييت •

ثم أعادت الغطاء الى مكانه من القدح الذهبى •

ـ ٣ ـ

ـ سيدة تطلب مقابلة القيصر •

بذلك دخل جنـــدى الحراسة مكتب ضـــابط الحرس معلنا طلب السيدة •

فرمقه الضابط بنظرة ازدراء قائلا :

ـ لعلك قد جننت ؟•

فردد الجندى ما سبق أن أعلنه لضابطه قائلا :

ـ سيدة تطلب مقابلة القيصر ! •

ـ رباه .. ماذا فعلت لتبليني برئاسة شرذمة من المعتوهين ..؟
انك لاتفتأ تردد « سيدة تطلب مقابلة القيصر » .. وماذا أنا فاعل لها ؟ ان هذا ليس من اختصاصي . ان طلب المقابلة من اختصاص الأمناء . قل لها أن تتقدم بطلبها الى مكتب الأمناء ! .

ـ سيدة تطلب مقابلة القيصر !.

فتنازل ضابط الحرس أخيرا ، ورفع عينيه عما كان يتشاغل به ، ليرى السيدة تقف خلف الجندى مباشرة . فقفز واقفا على قدميه . وما أن تبين حقيقة شخصيتها حتى قالت له :

ـ الأميرة هيلينا . فلتذهب توا لاخطار الأمين الخاص بأننى هنا لمقابلة القيصر .

ـ سمعا وطاعة يا سيدتى .

وكان يقف خلف السيدة رجـــل طويل القـــامة فى ردائه العسكرى . وتقدم هذا خطوة الى الامام قائلا :

ـ ولتأت بمقعد للأميرة .

وأمر ضابط الحرس بمقعد للأميرة . وأسرع الجندى لتلبية الأمر الصادر اليه . ولما عاد الجندى بالمقعد قال فافونيوس :

ـ وهل يليق بالأميرة أن تجلس فى مثل هذه الغرفة ؟.

وجيء بالمقعـــد فغـــادرا الحجرة .. وتبعاه الى غرفة الانتظار الملحقة بمكتب الأمناء . وجلست هيلينا مجهدة متعبة بعد تلك الرحلة التى استمرت حوالى ثلاثة ايام . ولم تستطع أن تتخلص مما يدور بخلدها من ذكريات الماضى القريب عن هذا الاجتماع الذى حضرته وما أعقبه من مقتل هيلارى . وما كان بعد ذلك من تنفيـذ حكم الاعدام فى ألبانوس . لقد سمعنا سماع هـــذا النبأ . ولكن لماذا ؟ لعلها قد أصبحت مسيحية ؟ كلا ... كلا .. انهـا ليست مسيحية . ولكن هذه الأحداث وتصرفات رجال السابلة المحليين تدفعها دفعا لتصبح مسيحية . ان تلك المذابح يجب أن تتوقف . ان اضطهاد هؤلاء المستضعفين الآمنين الوادعين يجب أن يوضع له حد . وهذا هو السبب فيما تحملته من مشقة هذا السفر والعلة

فيما أقدمت عليه . لقـــد رأت بعينيها وسمعت بأذنيها وتحققت مما يقع من مظالم .

وقطع عليها حبل تفكيرها ، قدوم الأمين محييا مرحبا قائلا :

ـ لقد اعتكف القيصر فى جناحه الخاص منذ ساعة ، على اثر ما تلقاه من أنباء وردت اليه من ميلان مع بعض الرسل . وقد أمر بعدم ازعاجه . وبمجرد امكان الاتصال به ، سأخطره بقـــدومك يا سيدتى الأميرة . اننى جد آسف ...

ـ اننى لن أغادر هذه الحجرة قبل أن أقابل القيصر !.

وعاد الأمين من حيث أتى معتذرا راجيا أن تتغير الظروف . وجلست هيلينا فى مقعدها وقد طافت بها الذكريات وحطت بها الى حيث تجلس فى تلك اللحظـــة تلتمس المقـــابلة فى قصر كونستانتيوس زوجها ... وهى لا تستبعد أن تطرد من هـــذا القصر . انها الزوجة المسرحة التى جحد وانكر زواجه منها . انها أم الولد الذى لم يعد والده يعترف به . انها ...

وهنا فتح الباب ، ودخل منه رجل يمشى الهوينا منحنى الظهر قليلا . رجل متقدم فى السن ، أشيب الشعر أشعثه . رجل خطت يد الزمن ملامحها على وجهه وتحت عينيه . انه كونستانتيوس . كونستانتيوس يحمل على كاهله عبء الأيام والحكم معا .

ونهضت من مقعدها . وكانت قد اعدت كل كلمة ستنطق بها أمامه بعد أن تنحنى احتراما لممثل الامبراطور . ولكنها لم تنحن. بل قالت مباشرة :

ـ انك تبدو متعبا مجهدا ياكونستانتيوس . هل بك علة ؟.

ـ اننى متعب حقا من كثرة العمل .

ثم اتخذ له مقعدا فى تثاقل الشيوخ مستطردا :

ـ وأنت أيضا يا هيلينا يبدو عليك الارهاق .ان ذلك بالنسبة الى أمر بديهى ، فقد بلغت الستين أما أنت ...

ـ اننى فى الخامسة والخمسين . انه عمر طويل .. طويل .. لقد حضرت لأتحدث الى القيصر فى أمور هامة .

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فانت صيئة الحظ . ان من قدمت للتحدث اليه بوصفه القيصر لم تعد له هذه الصفة !.

وابتسم لأول مرة منذ دخوله الغرفة .

فحملقت فى وجهه دهشة متسائلة :

ـ ماذا تعنى ؟.

ـ لقد تنازل كل من دقلديانوس وماكسيميان عن العرش وسيخلفهما كونستانتيوس وجاليريوس فى الحكم !!

ـ اذن فانت الامبراطور الآن ؟.

ـ أجل يا هيلينا . انهم يعدون الاعلان الخاص بذلك فى هذه اللحظة . ولقد شاءت الظروف ان تكونى اول من يعلم بهذا النبأ بعد الرسول الذى اتى به وبعد سكرتيرى الخاص .

ـ تلك انباء سارة ، وهى تيسر الأمور وتجعلها اكثر سهولة .

ـ أى امور هذه ؟!.

وتدفقت الكلمات من فمها تحكى له ما يرتكب من مظالم ضد القوم الابرياء الذين لاجريرة لهم غير انهم يجتمعون لعبادة ربهم . وسردت على مسامعه ما يرتكب من جرائم وما ينتهك من حرمات باسم الامبراطور . وطالبته بالغاء هذا القانون الذى اباح دماء هذه الفئة . وناشدته ان يستمع اليها لانها لا تريد لاسمه ان يبدو فى صفحات التاريخ ملطخا بعار الاضطهاد . ثم انذرته بانه ان لم يفعل ذلك ، قامت باعداد فرق لمقاومته كما فعلت ضد حكم كاروسيوس فابتسم مداعبا وهو يقول لها :

ـ انك كما عهدتك لم تتغيرى . هيلينا الثائرة المتدفقة حماسا .

ثم تغيرت لهجته الى الجد قائلا :

ـ لعلك لم تنقلبى مسيحية كما فعل كوريو ؟.

ـ كلا . وأنا لم أعرف الا الآن ان كوريو قد اصبح مسيحيا . ترى هل سيعدم هو الآخر ؟.

ـ لقد كنت فى حيرة عما اتبعه معه . لقد تجاوز سن الخدمة العسكرية . كما انه اكتفا من ان يقبع فى مقر داره بضيعته بايطاليا .

لقد اهتديت الآن الى ما يصلح له فعلا . ساعينه محافظا لفيرلوم .. كونستانتيوس ..

ــ وحيث انه من المسيحيين ، فانه خير من سيقوم بتنفيذ اوامرى . ان المسيحيين يطيعون أولى الامر منهم . ولذلك تتساءلين عن طبيعة هذه الأوامر الذى سيعهد اليه تنفيذها . ان اول هذه الاوامر هو الخاص بالغاء قانون اباحة دماء المسيحيين واضطهادهم . ان هذا الأمر بعد الآن فعلا سنقوم بالتأكد من ذلك بعد تناول العشاء .

ــ أو تعنى انك أصدرت فعلا امرك بالغاء هذا القانون الظالم ؟.. انني لا أكاد اصدق أذني .ولا استبعد هذا منك يا كونستانتيوس !..

ــ يا عزيزتى . لقد كان من اشق الأمور على أن أوفق بين حقيقة ما أومن به وبين صفتى كقيصر يحكم باسم الامبراطور . ولقد سارعت بمجرد تخلصى من هذا العائق : الى ايقاف العمل بهذا القانون الجائر حتى أمنع ما بعد ذلك من مظالم .

فنهضت عن مقعدها وقد برقت عيناها ببريق السعادة التى لم تعرفها منذ عدة سنين ، وقالت له :

ــ انني سعيدة . سعيدة سعادة مزدوجة لانك لم تنتظر لحظة لتحقق العدالة وتعيد الأمور الى نصابها .

ــ لدى أنباء سارة اخرى ستزيد من سعادتك !..

ــ وهل هناك من مزيد ؟..

ــ أو أنسيت ولدك ؟.. يا لك من أم ...

ثم أردف قائلا :

ــ انها تتعلق بقسطنطين . انه مرشح لوظيفة قائد بناء على ما قام به من أعمال مجيدة على حدود بلاد الفرس !..

ــ قائد فى سن الحادية والثلاثين ..

ــ رويدك . انني سأعارض فى ذلك !..

ــ لماذا ، ألصغر سنه ؟..

ــ كلا . لأنني أعده لشىء آخر !..

ــ ولكن قسطنطين لن يقبل منك أى معروف !..

– لقد فكرت جديا فى ذلك منذ ربع ســـاعة فقط ، اننى لم أتصور أن ظروفى ستكون كذلك فى هذا اليوم بالذات ، ترد لى الأنباء باعتلائى عرش الامبراطورية ، وتشاء الظروف أن تحضرى بشأن آخر فتشاركينني هذا العيد وتكونين أول من يسمع بالنبأ العظيم ، اصغى الى يا هيلينــا ، ما أظن ان قســطنطين يرفض العرش !.

– ماذا تقول ؟!.

فأمسك بيديها بين يديه مستطردا :

– هيلينا – يا عزيزتى ، لقد ارتكبت أمرا نكرا من اثنى عشر عاما خلت ، انه أكثر بشاعة من كل خطأ ترديت فيه ، لقد كنت مجنونا بالسلطة وبالسلطة فقط ، لقد كنت رجلا طموحا واســع الآمال كما تعرفين ، ولذلك تذكرين آخر يوم قبل رحيلى الى روما وميلان آخر ليلة ، لقد رأيت فيما يرى النائم اننى سأصــبح امبراطورا ، ولما استيقظت فى الصباح كنت أذكر كل دقائق هذا الحلم وكأنها حقائق ناصعة ، وتفاءلت بهذا الحــلم ، ووضعت تفاصيله نصب عينى !.

ثم ترك يديها لينطلق يروح يذرع الغرفة طولا وعرضا وبعد قليل استدار اليها قائلا :

– وما أن وصلت الى عاصــمة الامبراطورية ، حتى سمعت بأنباء تمرد كاروسيوس ، وقدرت أنه سيعهد الى برئاسة الحملة لتأديب هذا الرجل ، ولكن قيادة هذه الحملة لم يعقد لواؤها لمن هو أولى بها ، فهكذا كانت تجــرى الأمور فى بلاط الأباطرة ، وفشلت الحملة بقيادة فاتينيوس ، فاستدعانى الامبراطور وعرض على قيادة الحملة التاليــــة مع منصب القيصر ، وذلك بشرط أن أتزوج من ابنته ، وكنت قد قضيت خمسة أعوام فى شبه ضياع أترقب الفرصة المواتيـــة ، وقدرت اننى اذا رفضت هذا العرض انتهى أمرى وتبددت كل آمالى ، فقبلت ، وذهبوا بى الى معبــد جوبيتر لألغى زواجى منك أو لأسرحك بمعنى أوضح ، وتعلمت من ذاك الحين أن أحتقر جميع هذه الآلهة التى نعبدها أصناما ، فلقد ربطوا بين حياتينا فى معبد جونو ، ثم فصموا هذا الرباط فى معبد

جوبيتر ... ثم تزوجت من تيودورا . ولقد أجرموا فى حقهــا بأكثر مما أجرموا به فى حقى أو فى حقــك ، لأننى لم أكن أحب تيودورا ... لقد رزقت منها بســتة أطفال ، بين بنين وبنــات . ولكننى لم أتوسم فى أى منهم القدرة على ما كنت أعدهم له . ولم أر فى ولدى الأكبر منها ما رأيته فى قسطنطين . ان قسطنطين له شخصيته ومزاياه وكفايته . وأنا بحاجة الى تعيين من يخلفنى على العرش بعد أن بلغت هذا السن وأصبحت مجهدا مكدودا كمــا ترين .

ثم عاد ليواجهها قائلا :

ـ اننى أعرف أنه ضابط كفء وأنه أب لابن قوى . ولكننى أعرف أكثر من ذلك ، أنه ابن لأفضل أم . تلك الأم التى لم أسمع عنها الا كل خير . تلك الأم التى تحملت ما تحملت من عناء فى سبيل انصاف جماعة من المسيحيين ورفع الظلم عنهم . وهى التى منعتها كبرياؤها عن أن تتحمل أية مشقة فى الحضور لمقابلتى من قبل لشأن من شئونها . هــذه الأم هى التى يجب أن تكون أما لامبراطور روما ، بل وللامبراطورية الرومانية بأسرها . سأبعث رسولا فى طلب قسطنطين حتى يكون بجانبى . لقد رأيت الضابط السابق فافونيوس عند الباب . هل تسمحين بالاستغناء عن خدمته بضعة أشهر . لقد وقع عليه اختيارى ليقوم بهذه المهمة !.

وفتح الباب ودعا فافونيوس للدخول ، فدخل الضابط وحياه التحية العسكرية . فابتسم كونستانتيوس قائلا :

ـ هل لا زلت تذكرنى ؟.

ـ أجل يا سيدى الامبراطور .

ـ الامبراطور ؟. وكيف علمت بذلك ؟!

ـ كنت استرق السمع يا سيدى الامبراطور !.

فقهقه الامبراطور ضاحكا . ورددت الجدران أصــداء ضحكاته العالية . وقال لهيلينا :

ـ انه لم يتغير . هو هو كما عرفته دائما . ثم أحاطه علمــا بالمهمة التى سيضطلع بها . وصرفه بعد أن فرغ من ذلك .

ثم التفت الى هيلينا قائلا :

ـ انى مضطر للانصراف الآن . كما انك بحاجة الى قليل من الراحة . وسأعهد الى كوريو للعناية بك . يجب أن تعودى فى المساء ، لتطلعى على الأمر الجديد الخاص بالمسيحيين أولا ،ولتحضرى حفل اعلان تنصيبى امبراطورا حتى ولو كنت تزمعين غير هذا . . آه الامبراطورة . انها فى اكيسوليز ، لأن الجو هنا لا يناسبها . انني أريد من بلاطى ان يبدى احترامه للامبراطورة الأم مستقبلا ! الى اللقاء يا هيلينا فى مساء اليوم .

وانحنى أمامها مبتسما وغادر الغرفة .. انحنى الامبراطور أمام المرأة التى يجلها ويحبها ويقدرها . وخرج بخطوات أثبت من تلك الخطوات التى دخل بها . بخطى أقرب الى خطى الشباب منها الى خطى الرجل الهرم .

واتجهت بدورها الى الباب ، وكانت تشعر بأنها فى حلم جميل سعيد . حتى الأرض التى كانت تخطو عليها لم تكن لتشعر بها . وسمعت فى كل ما يحيط بها اصواتا متدفقة متلاطمة تطرق أذنيها :

ـ انك ستستعيدين كل شىء . الحب والسلطان . ما دمت قد عشت لغيرك . لا تؤثرين نفسك ، وسيغنيك الله من فضله .

هكذا كان يحدثها البانوس .

ـ فليكن حبك له أقوى من خيبة آمالك وأحزانك . ان من شأن مثل هذا الحب أن يؤتى ثماره عندما يحين الحين . وليكن حبك أقوى من كبريائك ، لا تنسى هذا ، ليكن حبك أقوى من كبرياء نفسك ، عندما يحين الحين .

بذلك كان يحدثها الملك كويل الحكيم .

ـ بارك الله المستضعفين ، انهم سيرثون الأرض وما عليها !

انها تسمع هذه الأنغام السماوية تطرق أذنيها من أعلى .

ولما خطت خارج الغرفة،حدق فافونيوس فيها بعينين تشعان هيبة واعجابا وارتياحا .

انها لم تكن فى اية لحظة من لحظات حياتها ، وحتى فى أيام شبابها الغض ، فى مثل هذا الحسن والجمال . حسن الهناء وجمال السعادة ، يشعان من وجهها فيكسوانه بقناع يطغى على ما خلفته يد الزمن من آثار .

- ٤ -

جلس فافونيوس ، وقد وضع قدميه فى وعاء الماء الساخن، يشكو الى رفوس ما لاقاه من نصب فى رحلته قائلا :

ـ لقد ذقنا الأمرين . وتنكرنا فى أزياء العبيد . ما أجمل أن يعود المرء الى فيرلوم . الى مستقره وداره !.

ـ لقد تقدمت بك الأيام . ما هذا السحج الذى أراه . ترى هل بلغ بك التقدم فى السن حدا لا تستطيع معه أن تدافع عن نفسك بدرعك . لعلك لم تعد تستطيع أن تحمله !.

ـ مهما يكن من أمر فاننى لم ابلغ بعد سنك . لقد سألتنى أن أقص عليك ما مر بنا من أحداث . هلا التزمت جانب الصمت حتى أستطيع ذلك ؟. آه . لقد حدثتك عن فطنة قسطنطين واسراعه بالاستئذان من الامبراطور جاليريوس فى الحفل الساهر ، وعما لاحظه من نظرات أوستبوس التى عكست عدم ارتياحه الى سفره. فتظاهر قسطنطين بالاكثار من الشراب وادعى بأن الخمر قد أفقدته وعيه . وتمكن بذلك من أن يراقب لوسينيوس فى حديثه الهامس للامبراطور ، ويستنتج من هذا أن الامبراطور سيعدل عن الاذن له. وفعلا استدعى الامبراطور رئيس الحرس وكلفه بالتوجه فى الصباح الى منزل قسطنطين واخطاره بالغاء الاذن له بالسفر ، وتعيينه قائدا لأحد الفيالق . ولما رأى الامبراطور جاليريوس أن قسطنطين سقط اعياء من كثرة افراطه فى الشراب ، أمر بحمله الى منزله . وما ان أودعه الحراس فراشه وانصرفوا ، حتى نهض مسرعا

واستبدل ثيابه وأعددنا الجوادين اللذين واصلنا بهما رحلتنـــا الى بيزنطة على اساس الاذن السابق الحصول عليه من الامبراطور والذى لم يبلغه بعد بشيء يفيد العدول عنه ، حتى اذا ما تبينـوا رحيلنا فى الصباح ، كنا قد قطعنا مسافة تؤمن لنا طريقنا • وهناك تنكرنا فى زى العبيد وانقسمنا الى احدى قوافل التجار حتى وصلنا الى آدرنه • وحرصنا على الا تنم حركاتنا عما يغاير مظهرنا ، حتى اننا اضطررنا الى مشاركة غيرنا من العبيد فى طعامهم • وتسللنا من أدرنه فوق صهوة جوادين آخرين • وكانت زوجته قد سبقتـه اليها لتعد له عدة هربه بناء على توجيهه لها من قبل ، لانه كان واثقا مما سيحاك حول سفره من مؤامرات •

وهكذا انتقلنا من بلد الى بلد ، واستبدلنا جيادا بجيـــاد • وقضينا بعض الليالى فى العراء ، وبعضها الآخر فى حظائر الماشية ، وقطعنا المسافات الطويلة فى الغابات وبين الجبـــال ، واعترض سبيلنا الكثيرون من قطاع الطرق واللصوص ، حتى وصلنا اخيرا الى بلاد الغال فانتهت كل متاعبنا • الم تصـبح بذلك بين ربوع امبراطوريتنا ؟ ووجدنا أن امبراطورنا المجيد قد أعد لنا وســائل الراحة وسبل الانتقال • فاجتزنا بلاد الغال فى سهولة ويسر حتى بلغنا بولونيا ومنها الى اندريده ومنها الى لندن ومنها الى هنا !

وبعد أن رفع قدميه من وعاء الماء الساخن وتاملهما قليـــلا استطرد قائلا :

ـ لم يسبق لى أن قطعت مثل هذه المسافات الطويلة ممتطيـا صهوة جواد بعد آخر ، مواصلا سيرى ركضا وعدوا ، حتى وصلنا الى بلاد الغال حيث لم نجد من الصعاب مثل ما صادفنا قبل اجتياز حدودها • لقد قطعنا المسافة من شرق أوروبا الى غربها فوق ظهور الجياد ، وفى أعقابنا رجال امبراطور متعطش الى سفك الدماء •• اننى جد راغب فى نوم لا يقل عن ثلاثين ساعة على الاقل ، فى فراش وثير •••

وقطع عليه حديثه صوت هيلينا :

ـ فاقونيوس ••

ونهض الرجلان وقوفا كالصبية الصغار أمام أستاذهما الكبير.
- ان ولدى يرغب فى مواصلة طريقه الى قصر الامبراطور فورا، فاستعد لذلك بأسرع ما يمكنك !.
- سمعا وطاعة يا سيدتى .
قال ذلك وكان وجهه قد قد من صخر فابتسمت قائلة :
- انا اعرف كم انت متعب . ولكنهم يعدون الخيل لكما .
ولما انصرفت التفت الى رفوس قائلا :
- الخيل ؟ لقد ضقت ذرعا بركوبها .. ساعتان فقط تفصل بين عناء تلك الشهور والأيام ، ثم تعود لنستأنف الركوب الى ابيراكوم ، مم خلق هذا الرجل ؟.
- كان الله فى عونك .
وعاونه رفوس على ارتداء حلته العسكرية وعدة سلاحه .
وفى الطابق الاعلى ، قبل قسطنطين والدته قائلا :
- ساخطرك بحقيقة الامر اذا كان هناك ما يستدعى هذا . اطمئنى . انه قوى البنيان شديد الاحتمال .
ولما أوما اليها برأسه مودعا ، خيل اليها انها ترى والده عندما كان يلقى اليها بالتحية بهذه الصورة . من قبل واستعادت قول والدها يوم ميلاد قسطنطين وقارنت بينه وبين ما سمعته منذ قليل من فافونيوس عندما كان يسرد على مسامع رفوس مغامرتهما معا باجتيازهما اوروبا من الشرق الى الغرب . انه سينشأ على صورة أبيه ، بل وسيكون اعظم منه قدرا . انه سيحكم كل ارض يطأها بحوافر جواده . لقد اجتاز أوروبا ممتطيا ظهر جواده . انه امبراطورها المستقبل ، وهو معقد آمال امه وأمانيها .
وهبطت الدرج الى الطابق الاول ومنه الى مدخل الدار حيث لوحت بيدها مودعة ولدها وتابعه .
وما ان اختفيا عن ناظريها ، حتى استدارت الى روفوس قائلة
- رفوس ، الى بعربة الركوب . انى ذاهبة الى ابيراكوم فى اعقابهما .

ـ الضابط قسطنطين .

بهذا اعلن ضابط الياوران قدوم الرجل الذى بلغ صوت وقع أقدامه سامع والده ، وعرف انها لولده قبل أن تقع عليه عيناه بقامته المديدة ومنكبيه العريضين ووقفته العسكرية ، تماما كما كان يبدو الضابط كونستانتيوس منذ ثلاثين عاما .

وكان الامبراطور جالسا فى فراشه بعد ان قضى ليلة تعرض فيها لاحدى ازماته القلبية ، التى تكررت فى الأسابيع الأخيرة « ولقد ساوره الشك فى أنه لن يمتد به العمر حتى يرى ابنه القادم من الشرق ، وبالذات فى الليلة السابقة التى تعرض فيها لازمة قلبية شديدة . فلما أصبح الصباح ، كان اشد ما يتوق اليه ، أن يمتد به العمر بضعة أيام أخرى يستطيع فيها أن يلتقى بولده » وكم كان فرحه شديدا ، عندما استأذن ضابط الياوران فى مثول ولده بين يديه على اثر قدومه . وأدرك أن ولده قد وصل قبل الوقت المعين له ».

وعلى بعد ثلاث خطوات من فراش والده ، توقف الضابط الشاب وادى التحية الواجبة قائلا :

ـ الضابط قسطنطين تحت تصرفّ جلالتكم .

انها ثمانية عشر عاما مرت منذ ان رآه لآخر مرة ! لقد أصبح الصبى رجلا .. رجلا بكل معانى الرجولة والعسكرية السليمة . وران عليهما صمت مطبق ، لاحظ الابن بعده أن الوالد يجاهد لكى ينحنى الى الامام ، فأسرع راكعا الى جانب فراشه ، وشعر بيد الرجل المريض تربت على رأسه .

ـ انهض يا ولدى . ولتنس ما أسأت به اليك .. لا تدع الماضى يقف حائلا بيننا .

قاطع قسطنطين والده قائلا :

ـ لقد فعلت ما فعلت فى سبيل روما يا والدى . لم يكن هناك معدى عن ذلك ».

ـ ان الدوافع غالبا ما تكون محل شك وريبة . ان المرء لا يستطيع ان يكون فى تصرفاته محدود الدوافع . ان معظم تصرفاته بين بين . موزعة بين الأبيض والأسود وبين الخير والشر . ويعيش المرء تحت ثقل افكاره المضطربة المشوشة حتى يقضى نحبه فاذا ما وورى جسده الثرى ... أصبحت هذه الأفكار أو قل جهازها الفعال حيوانات حية .. مهلا . دعنى أتم ما اريد قوله . مهما يكن من أمر تبريرك لتصرفى ، وبالرغم مما كان فيه من خير لروما فانه كان تصرفا مجافيا لكل صواب . ولن يمكننى اصلاح ما أفسده الدهر . اننا نستطيع أن نعقد الأمور ، ولكننا لا نستطيع أن نعالج معقداتها . ان ما كان قد كان بصورته البشعة الظالمة . والظلم لا يمكن أن يصبح عدلا .

واعتدل الرجل واغمض عينيه قليلا ، وتبادر الى ذهن والده أن يستعين بالطبيب الذى ينتظر فى الغرفة المجاورة . وكان الرجل قد فرا ما يدور بخلد ابنه ، اذ سمعه يقول له لفرط دهشته :

ـ لا . . انني اريد ان تكون بمفردنا . هناك الكثير مما اريد ان استفسر منك عنه . ناولنى هذه الكاس . حسن . ان النبيذ يعيد للجسم حيويته . والآن .

ـ هل تركك جاليريوس ترحل ام انك تسللت هاربا ؟

قدم لى تقريرا مفصلا بكل صغيرة وكبيرة .

* * *

عندما توقفت العربة فى ساحة القصر ، أمام الباب الرئيسى ، كان فى انتظارها عدد كبير من الخدم والموظفين الذين يحملون المشاعل . وما ان هبطت هيلينا من العربة حتى أسرع قسطنطين لاستقبالها قائلا :

ـ كيف تسنى لك يا أماه ان تحضرى بمثل هذه السرعة ؟

ـ وهل حضرت فى الوقت المناسب ؟

ـ اجل يا أماه . ولكن كيف تسنى لك ذلك ؟ ان الرسول الذى بعثت به اليك ، قد غادر القصر منذ اربع ساعات فقط .

ـ لقد رأيته منطلقا فى الطريق . انني لم انتظر أن تبعث لى

بأحد . لقد وصلت بعد رحيلك بقليـل . كيف حـال .. حـال الامبراطور ؟.

ـ لقد وصلت فى الوقت المنـاسب يا والدتى . هـذا كل ما استطيع قوله . انه فى غاية الضعف .

ـ والامبراطورة .. ؟

ـ الامبراطورة تيودورا لم تخطر بعد . انها مـع اطفالها فى اكيـروليز .

ودخلت الى القصر يتبعها ولدها . والفت جماعات عديدة من الضباط والموظفين الكبار يقفون مع بعض موظفى البلاط ورجاله ، يتهامسـون ويتبادلون الأحاديث .

واتجهت انظار الجميع الى الأم والابن وانحنوا لهما محيين . ثم ارتقيا الدرج الى الطـابق الاعـلى ، حيث قابلهما رجـال الياوران والأمنـاء بكل تجلة واحترام . لقد أدرك الجميـع منذ ستة أشهر أن زوجة الامبراطور السابقة قد استعادت مكانتها عنده ، بعد حضورها الحفل الذى أعلن فيه نفسه امبراطورا خلفا للامبراطور المتنازل عن العرش . كما كانوا يعرفون أن الفضل فى حسن معـاملة المسيحيين والغـاء القوانين السابقة الخاصة باضطهادهم يعود اليها .. وكانوا يرون فى دفاعها عن المسيحيين أمرا بديهيا ، لأنها بمقتضى تعاليم هذا الدين تعتبر الزوجةالشرعية للامبراطور ، حيث أن هذا الدين لا يعترف بالطلاق !.

ثم تأكدت منزلة الزوجة والابن بتلك السـاعات الطوال التى قضاها قسطنطين مع والده منفردين ، بعد أن أصدر الامبراطور أوامره المشددة الى الجميع بعدم اخطار الامبراطورة حيث توجد مع اطفالها .

وقد لمست هيلينا كل ما تخلف عن هذه التصرفات والمظاهر من مشاعر فى نظرات القوم التى كانت خليطا من الاعجاب والترقب والشك ، والرجاء ، وهى فى طريقها مع ولدها الى غرفة الرجل المحتضر .

ولما أصبحا عند باب غرفته قال قسطنطين لوالدته :

ـ لقد طلب بان يراك على انفراد . سانتظر هنا !»
وفى هدوء دخلت وتقدمت من فراش الامبراطور وجلست عند قدميه . وتأملت وجهه وادركت لأول وهلة انه فى النزع الاخير .. الا انه شعر بوجودها فتمتم فى صوت خافت وهو لم يزل مغمض العينين :
ـ هيلينا !! ..
فاجابته بصوت رقيق هادىء :
ـ هنا يا عزيزى ..
فابتسم راضيا ، وكأن حضورها ووجودها الى جانبه قد أعاد له بعض مظاهر الحياة ففتح عينيه وطلب اليها ان تعاونه على الجلوس . وبعد ان عاونته على ذلك شرع يتحدث اليها قائلا :
ـ لقد سرد قسطنطين على مسامعى كل ما كان من شأنه . وقد ارتحت الى ما لمسته من حديثه عن نفسه ومن تصرفاته .. انه سيستطيع ان يحمل العبء .. ولكن بمعاونتك فى بادىء الامر انا مطمئن مادمت ستكونين الى جانبه .. لا تنسى نبوءة والدك .. انه سيكون اعظم شأنا من أبيه ، اطلبى اليه ان يدخل .. فسرعان ما ساترككما ! »
واستدعت قسطنطين الذى وقف بجانبها أمام فراش والده ليستمع اليه قائلا :
ـ انك ستتولى الحكم .. وانا اعهد اليك بأطفالى .. واضع مصيرهم بين يديك .. وسأباركك بقدر ما تحسن اليهم وللامبراطورة انك ستضطلع بمسئوليات جسام !»
فأومأ اليه ولده بموافقته ثم طمأنه .. فسأله والده أن يدعو كبار الضباط والرسميين . وصدع الابن بما أمر به ، وغصت الحجرة بكبار رجال الدولة . والتزم الجميع الصمت وهم يستمعون الى ما يقوله لهم الامبراطور فى صوت خافت :
ـ اننى راحل عنكم . ولعلكم تشتركون معى فى رغبة واحدة الا وهى الا يحكم روما ورجالها الكبار أى غريب عنهم . وستجدون

فى ولدى قسطنطين بقيتكم . وستجدون فيه الشخص الجدير بوالده وبوالدته فلافيا جوليا ـ هيلينا ـ أوجستا !.

وكان لأصوات الموافقة المنبعثة من قلوب الحاضرين ، أكبر الاثر فى بعث قبس من الحياة فى الرجل المحتضر حتى يستطيع ان يواصل حديثه :

ـ انى اعهد اليك يا ولدى بالحكم من بعدى . وعليك أن تمسح باولدى دموع المظلومين وتنتقم لهم ، لهولاء المسيحيين الذين يتعرضون فى جهات اخرى لكل انواع الجور والعسف !.

ولم تتمالك هيلينا نفسها من أن تركع جاثية على ركبتيها وقد غطت وجهها بيديها .. الله يريد أن يرضيها فى آخر لحظة من لحظات حياته .. يرضيها الى ابعد حد .. يرضيها بأكثر مما كانت ترجو منه .. ورنت اليه بعينين تفيضان شكرا وحمدا وتقديرا ؟ ورأت فى وجهه كل تعابير الحب الصامت العميق .. حب العمر الذى لم تؤثر فيه الأعوام الطوال والاحداث الجسام ، انها الحياة تأخذنا مع تيارها وتجرفنا أمامها ، فلا نستشعر مرور الأيام والأعوام ، ثم نجد انفسنا وقد بلغنا الشاطىء الآخر ولم نحقق ما نريده نحن . بل عشنا كما أرادت لنا الأقدار !.

وفى هذا الوضع لفظ كونستانتيوس انفاسه الأخيرة .. وبهذه الخواطر كانت تتامله هيلينا .

وظلت هيلينا فترة جاثية على ركبتيها ، وقد وقف كبار القواد من خلفها فى صمت خاشعين . وكان يتوسطهم بخطوة الى الامام قليلا ، قسطنطين . ثم بدأ الماضى يتحول رويدا رويدا لينتقل الى المستقبل فى شخص هذا العملاق القوى ، الذى استدار ليواجه الواقفين من خلفه ، وكأنه يقول لهم :

ـ أنا المستقبل !!

وراح يتاملهم واحدا بعد آخر ، وكأنه يريد أن يزن كل واحد بقدره وبقوة شخصيته وشجاعته . وكانت عيناه فى حدة نصل السيف القاطع ، وكان فيهما فجر المستقبل وبزوغ شمس الفوز الجديد .. قوة وشبابا وعزما وأملا !.

الجزء الخامس : ٢١٢ ميلادية

- ١ -

ـ خوذة فينيقية ..

بهذا علق قسطنطين على تقديم الخوذة اليه . واستطرد يقول:

ـ هل في عثورهم عليها واحضارهــا الى اية دلالة ؟ هــل تتفاءلين او تتطيرين من مثل هذه الاشياء ؟.

وكان واقفا في مواجهة مدخل خبائه الذى نصبوه له ، وكانوا ينصبون آخر لوالدته ، التى كانت تجلس على مقعد وقد انعكس ضوء المصباح الخافت على وجهها ، وبدا له انها لم تتغير كثيرا عن ذى قبل ، لا في ملامحها ولا في طباعها ، ولــا لم تعقب بشيء على سؤاله استطرد قائلا :

ـ انني سعيد بقدومك يا اماه . جد سعيد . انهـا مخاطرة منك بدون شك . ومع ذلك فانا سعيد بقدومك . انك تنهجين نهج والدك ، اليس كذلك ؟ تظهرين دائما في اللحظات الحاسمة ! .

وظلت على حالهــا ، ملتزمة جانب الصمت لا تعقب بشيء .. واستطرد في حديثه قائلا :

ـ انني مدين بحياتي لحضـــــور والدك في الوقت المناسب عندما تأزمت الامور عند مولدى . انني لم انس ولن أنسى هـذه القصة ما حييت . ثم كان قــدومك الى القصر الامبراطورى في اللحظة التي كان والدى يفارق فيها الحياة .. لقد حضرت مدفوعة بغريزتك التي لم تخطىء ابدا . وانني لسعيد بقدومك ، لأنه يتيح لي الفرصة التي كنت اترقبها للتحدث اليك في كثير من الأمور .. ولقد كنت أعرف انك تتجنبينني وتتباعدين عني ، حتى انني لم أكن أعرف اين انت . فاين كنت ؟ - لقد كنت مضطرا ان أفعل ما فعلت يا اماه . لم يكن بوسعي غير ذلك . ولقد توقعت أن يغضبك تصرفي لأنك كنت تحبين ميترفيتا . وكذلك انا ، كنت أحبها ومازلت أحبها ولـكن هذا هو شأن الحياة يا اماه . وانني لأحس الآن باحساس

والذى عندما اقدم على فعلته معك • الا أن المرء ليس حرا عندما يكون امبراطورا • انه أكثر عبودية لمتطلبات منصبه من عبيده لرقهم • ان الامبراطورية تتطلب من التضحيات الشيء الكثير ، ولكنها تتطلب من رئيسها اكثر مما تتطلبه من رجالها . انها لا تتطلب من هؤلاء الا بالتضحية بالدم . أما رئيسها ــ الامبراطور ــ فانها تتطلب منه التضحية بالروح .. بالذات .. بالهناء .. براحة القلب . لعلك تدركين ما اعنى !.

ولم تنبس السيدة العجوز الجالسة فى مقعدها ببنت شفة ولم يكن هذا الجبل المشرف على المخيم باكثر صمتا منها . فقال بنبرات تهتز غضبا :

ــ اعرف ما يغضبك . انه ليس تسريحى لمينرفينا فقط .. انه موضوع ماكسيميان ايضا • ولكنه كان يجب ان يموت ــ لم يكن بوسعي الا أن افعل ذلك • لعلهم لم يصارحوك بالحقيقة كلها لقد تمادى الرجل فى غيه حتى حاول رشوة بعض ضباطى المقربين وانه هو الذى اذاع بين الناس نبأ موتى الكاذب . وكنت واثقا من أن الرجل لم يتورع عند قتل ابنه من عمل كل ما يستطيع فى سبيل استعادته لرداء الامبراطور الأحمر . لقد نكث الرجل بعهده مع دقلديانوس ونكث بعهده معى . فكان من المتعين القضاء على هذا الرجل ، يجب أن تتبينى كل ذلك يا اماه !.

وجرؤ اخيرا على أن يواجهها . فلاحظ انها مغمضة العينين ساكنة لا تتحرك • فاسرع يركع عند قدميها ، ليجدها قد استسلمت للكرى كطفل متعب مكدود . ترى منذ متى كان ذلك ؟ لقد وصلت بعد انفضاض مجلس الحرب مباشرة ؟ لقد اعلن فالينتيوس قدومها وهم يتداولون فى مجلس الحرب ، فقام الضباط ليخلوا المكان للام والابن فى هذا اللقاء ، بعد القطيعة الطويلة الامد . وعندما انفض الاجتماع ، احضروا له الخوذة الفينيقية التى لاحظ انها لم تزل بيده !.

ووضعها فوق احدى المناضد التى كانت مغطاة بمختلف الخرائط والخطط الحربية . فأحدثت صوتا فتحت هيلينا عينيها

على اثره لترى ولدها راكعاً عند قدميها .. فحنت عليه بعينين رأى فيهما ما كان يراه من حنان عندما كانت تحنو عليه في المهد طفلا ..

وسرى عن قسطنطين . وابتسم في وجهها راضيا . وردت عليه ابتسامته بأخرى أعرض منها .. وضمته الى صدرها تقبله ويقبلها .. وعاد يسألها :

ــ اين كنت يا أماه طوال هذه الفترة التي ابتعدت فيها عني ؟.

ــ في جولشيستر حينا ، وفي فيرلوم حينا آخر . لقد كان لدى الكثير من مهام الأمور هناك !.

وتذكر انه لم يعرض عليها شيئا تأكله. فلما عرض عليها اجابته بأنها تناولت عشاءها في الطريق ، وان فافونيوس لم ينس هذا .

ــ انها خمس سنوات يا أماه .. ويا لها من أعوام !.

وكان يتساءل فيما بينه وبين نفسه ، عما اذا كانت ستحدثه في موضوع ميترفيتا او في موضوع ماكسيميان . كما كان يتساءل عما جاء بها الى هذا المكان أصلا . ثم سمعها تقول له :

ــ لقد تحدثت في طريقي الى كثير من رعاياك . ولقد كانوا يباركونني لأنني الأم التي أنجبتك . لقد كنت حاكما عادلا حكيما . واني أنضم اليهم في رأيهم ! .

ــ انك تدخلين على قلبي السرور يا أماه . لقد كنت اخشى حكمك على مدى صلاحية الطريقة التي أدرت بها زمام الحكم !.

ــ لقد كنت ادعو لك بالتوفيق طوال هذه الأعوام . لطالما وددت ان اتصل بك وان اراك .

ــ ولماذا تأخرت طوال هذه السنين ؟.

ــ لأنني كنت أريد أن أنفرد بك ، فانتظرت حتى تم ذلك .

آه..انها فاوستا .ان امه كانت تنفر منها ، كما كانت فاوستا هي الأخرى لا تنعطف نحوها . ان المسألة بالنسبة لهيلينا مسألة ميتا . انها لم تكن تقر هذا الزواج. هذا الزواج من ابنة الامبراطور

ماكسيميان لدواع سياسية . هذا الزواج الذى فيه افتئات على حق الزوجة الأولى ، كما حدث ذلك من قبلُ معها .

ولكن .. أو تنتظر كل هذه الأعوام ، ثم تختار لحضورها هذا الوقت بالذات ؟ ما هذا الذى أتى بها الى ميدان القتال ودفعها لتحمل عناء هذا السفر الطويل ؟.

ـ لعلك لا توافقين على هذه الحرب يا والدتى ؟.

ـ قسطنطين ، ان الحرب حدث من أحداث البشرية البشعة .. وان كان ماكسنتيوس حاكم غادر ظالم . وقد ضاعف من حنقى عليه ما سمعته بشأن سوفرونيا . سوفرونيا زوجة حاكم روما التى انتحرت بطعنة من خنجرها هربا من بطش ماكسنتيوس وعسفه والتى كانت مثلا حيا للاضطهاد والجور والظلم .

ـ لقد كانت مسيحية يا أماه ؟.

ـ اجل . وان الله سيكون معك مادمت مع المظلومين .

ـ الله ! انك تعرفين يا والدتى انتى لم اتلق من العلوم غير كل مايتصل بشئون الحرب والقتال . ولكننى بالرغم من ذلك كنت اشعر دائما بان هناك قوة أعلى من البشر ، وأعلى منى بعـد ان أصبحت امبراطورا . وكنت أتمثل هذه القوة فى الشمس مصدر الحياة على الأرض .

ـ ان الشمس جزء من الوجود .

ـ ان هناك منطق واحد يعجبنى فى عبادة هؤلاء المسيحيين ، وهو ايمانهم باله واحد . وانه لمنطق معقول يتفق مع طبيعـة الأشياء . أما ماعدا هذا من معتقدات فلا أقتنـع به ، ولذلك لن استطيع ان اتبع دينك الجديد .

فلتضرب لى مثلا !.

ـ كهذا الذى يزعمون من تجسد الله ليصبح انسانا فى شخص المسيح ، يعيش بين الناس ويضطرب فيما يضطربون فيه ويأكل من طعامهم ، ثم يصلب ويعذب . انك تطلبين منى اكثر مما يحتمله عقلى اذا اردت ان أصدق ان الله ـ تلك القوة العليا بكل جلالهـا

وعظمتها وعزتها ـ يتنازل ليصبح انسانا لا حول له ولا قوة .. لا .. لا .. يا أماه ، ان الله أكبر من كل ذلك واجل شانا ، انه قوة قدسية لها جلالها ولها هيبتها ولها غموضها ..

ولما اعيتها الحيل معه ، فضلت أن تنسحب لتستريح !..

- ٢ -

قال قسطنطين للقائد اسكلبيوداتس :

ـ ان ما أصدرته من تعليمات رئيسية من البساطة بحيث يمكن لكل قائد ان يعيها ولا يغفل منها شيئا . ان هذه المعركة ستكون معركة اجنحة بمعنى اننا سنعول فيها على سلاح الفرسان . هل فهمت ما أقول ؟.

ـ ان كل فارس من فرسان جيشنا سيقابله ثلاثة فرسان منهم .

ـ وهل خيل اليك انني اعرف غير ذلك . اما كان من الواجب عليك ان تعرف أن فرسانهم وجيادهم ليست كفوا ولا ندا لفرساننا وجيادنا . انهم وافرو العدد قليلو الفاعلية . انهم لا يجيدون الكر والفر . لقد أتخمتهم كثرة الطعام والشراب لقربهم من العاصمة روما . لم تبق أمامنا الا هذه المرحلة وتنتهي الحرب.

ـ مولاي الامبراطور . لقد كان لي شرف القتال معكم ومع جلالة الامبراطور والدكم . وأنا أعلم الناس بشجاعتكم واقدامكم ، الا ان العدو بالرغم مما فقده في تورين وفيرونا يفوقنا عددا وعدة . وهو ينتظرنا في هذه المرة ويتاهب للقائنا . ان عنصر المفاجاة ليس في صفنا في هذا الهجوم .

ـ ليس العدد وليست العدة كل شيء ، اذا ما قيست باشياء أخرى ! .

ـ ولا تنس يا مولاي الحرس الامبراطوري الذي يضم احسن مقاتلي الامبراطورية .

ـ تلك الطغمة الفاسدة التى كانت تبيع الامبراطورية على مر القرون لمن يدفع لها ثمنا اعلى. وحق الآلهة لاقضين عليهم واحطمنهم تحطيما . ان لم يكن لهـذه الحملة من فضل غير القضاء عليهم لكفاها هذا فخرا . سأتولى بنفسى قيادة الهجوم ضدهم . وان غدا لناظره قريب .

ـ الامبراطور هو الامبراطور . ما علينا الا أن تؤمر فنطيع أمره

وتدبر امره ـ ان هذه الحال لا تسره . وما هذا القائد الماثل بين يديه الا مرآة تعكس ما يدور بخلد غيره من قواد . ان الحرب لا تكسب بهذه النفسية ، يجب على الجندى أن يؤمن بالنصر .. أين هو الايمان والثقة بالنفس ؟ . انه يجب أن يجمعهم ويلقى فيهم خطابا يشعل نار حماستهم ويعيد لهم الثقة بأنفسهم .

ـ الى اللقاء عند الفجر . اجمع لى جميع القواد والأركان ..

واستغرق فى تفكير عميق ، ان معركة الغد ستكون الفاصلة. ان ماكسنتيوس حشد له جميع قواته . انها لن تقرر مصـــير ومصير الامبراطورية فقط ، انها ستقرر مصير المسيحيين أيضا .. انها ستقرر مصير العالم كله .

وخطا متثاقلا نحو مدخل خبائه ، حيث وجد تابعه فالينتيوس يحدق النظر فى السـماء . ولمـا سأله عما يسترعى انتباهه فى السماء ، أشار الجندى بيـده الى الشمس فى أفق الغروب .. وشاهد قسطنطين عجبا ! رأى الشمس ترسل من قرصها شعاعا قويا متوهجا مزدوجا متقاطعا ..

ـ فالنتيوس ، هل رأيت ما أرى ؟.

ـ أجل يا مولاى .

ـ ان هذين الخيطين يشبهان الصليب . عجبى لما أرى !!

وخطا الى الداخل ، وألقى بنفسه على فراشه مستعرضا ما أعده من خطط للقتال . ثم عاد ليستعرض تلك الظاهرة التى رآها فى الأفق عند مغرب الشمس .. وأجهده التفكير ، فغلبه الكرى .. واستسلم للنوم .



وصحا من نومه ، ووجـد نفسـه يردد ما قرأه فى احدى المقطوعات الشعرية :

ـ بهذا ستنتصر .. بهذا ستنتصر .

والفى أمام عينيه مشهد شعاع الشمس الذى تمثله فى عينيه صليبا . ونادى على تابعه الذى اقبل نصف نائم ، ليرى مولاه واقفا امام مكتبه ، محدقا النظر فيما امامه من أوراق قائلا :

ـ اكتب ما امليه عليك . امر عام لقوات الجيش المقاتلة .. وراح يملى امره الذى الهم به .

صحت الدنيا فى يوم ٢٨ اكتوبر على صبح رطيب تكاثفت فيه استار الضباب . واستيقظ يعبوركس على اصوات الحركة التى دبت فى المخيم ، وحملق فيما امامه ليبعد آثار النعاس عن عينيه ، وليرى فيتوس مرتديا كامل هندامه مثبتا خوذته على رأسه .

ـ ماذا بك ؟ ان نداء الصبـاح لم ينطلق بعد . كم السـاعة الآن ؟ ان الشمس لم تشرق بعد ! !

ثم اقبل كروكاس ، وتبعه آخرون ، حتى بلغ عدد الحاضرين العشرون تقريبا . وراحوا يحدقون النظر بفيتوس الذى كان يبحث عن درعه وحسامه ، فتساءل بعضهم .

ـ ترى ماذا حل به ؟ لعله يمشى فى نومه ؟.

ـ أولى بكم ان تستعدوا . لقد حلّ اليوم الموعود ..

ـ ان اليوم لم يبدأ بعد . أن « النفير » لم ينطلق بعد ؟ لعلك قد جننت ! .

ـ انه اليوم الموعود . انكم تعـرفون ما اعنى . ألم تروا تلك الظاهرة عند غروب شمس الأمس ؟.

ـ ماذا ألم برجال الجيش ؟ يا لتلك الخرافات والأوهام ! ..

ـ لقد كانت علامة الصليب . انه اليوم الموعود .

وسمعوا ابير ينفخ فى الصور .. ووصلت الى مسامعهم دعوة النافير بسرعة التأهب والاستعداد . ثم دخل ابير عليهم الخباء

بصحبه جندى يحمل جرة بها سائل ابيض . ولاحظ الجميع أنه قد خط على خوذته صليبا أبيض مستعرض الخطوط . ثم قال لهم

ـ بأمر جلالة الامبراطور ، يجب على كل محارب أن يرسم الصليب على خوذته وعلى درعه فى دقة وعناية .

وتقدمهم فيتوس صادعا بالأمر فى جلال وقدسية . وتردد الآخرون متسائلين عن السر فى هذا الأمر . فقال أحدهم :

ـ لعل الامبراطور قد تفاءل من أشعة الصليب عند الغروب .

فقال لهم فيتوس :

ـ أجل . وانها وايم الحق لعلامة النصر .

ـ ان فيها لسحرا !.

ـ انها سحر العالم كله . انها علامة النصر ، انها دلالة عصر جديد ، لقد سبق ان اخبرتك بذلك يا كروكاس وأنت يا بمبوركس عندما كنا نعبر جبال الألب كنا نحلم بأننا سنسوقهم أمامنا سوق الانعام .. انه معنا .. انه القوة الخارقة العليا الذى لا يقف فى وجهه شىء . لقد انتهى أمر ماكسنتيوس !.

فقال له بمبوركس :

ـ هل رأيتهم ؟ انهم هناك على ضفاف التيبر . انهم يبلغون ثلاثة أضعاف عددنا .

ـ حتى ولو كانوا عشرة أضعاف عددنا . لقد انتهى أمرهم !

وآثر بمبوركس ان يسرع بتنفيذ الأمر الامبراطورى ، وحذا حذوه سائر الجند والضباط . وخرج فيتوس من الخباء ليرى المئات من الجند وقد رسموا على خوذاتهم ودروعهم علامة الصليب بالسائل الأبيض !

وسرت فى المعسكر حركة غير عادية . ونادى الضباط من بعيد بالنداء العسكرى لينتبه الجميع . واصطف الجنود على

الجانبين يفسحون الطريق لركب الامبراطور القادم لتفتيش الطابور كما تقضى بذلك التعليمات العسكرية قبل الهجوم • ووقفت القوات تتأمل القادمين فى الطليعة ، فرأوا أنهم جميعا قد وضعوا علامة الصليب على خوذاتهم وعلى دروعهم • ثم أقبل الأمبراطور وسط حرسه الخاص من الضباط ، الذين رسموا العلامة المقدسة بسائل الفضة تمييزا لهم • أما الأمبراطور فقد رسمت العلامة على خوذته ودرعه بماء الذهب الخالص • وبدلا من أن يرى رجال الجيش حامل العلم ينشره المعهود ، رأوا فى مكانه علامة الصليب موشاة بالحرير •

الجزء السادس : ٣٢٦ ميلادية

من الامبراطور ، صاحب الجلالة المعظم قسطنطين بعون مخلص البشرية يسوع المسيح ، امبراطور العالم الرومانى من بريطانيا الى فارس ومن نهر الدانوب والراين الى نهر النيل .. الى المبجلة فلافيا جوليا هيلينا ، مع تحيات واحترام والدها الخاضع المطيع للوالدة المقدسة المعظمة ..

لقد مرت ثلاث عشرة سنة تقريباً منذ ان اقتحمت قواتنا التى باركتها دعوات والدتنا وقداستها علامة المسيح بن مريم وذكراه الخالدة بكل جدراة وفخر أبواب روما .

ولم تمر هـذه المدينة فى تاريخها بمثل ما مرت به من نصر لايضارع حققته قواتنا ضد العدو الذى كان يفوقها عددا وعدة .

ولقد كان من حسن التوفيق ان تتبع فى مسلكنا ارشادات وتوجيه والدتنا المبجلة ، التى بصرتنا بوجوب استعمال الحلم مع أعدائنا المنهزمين ، ونشر روح المحبة فى جميع ارجاء الامبراطورية والتى بفضلها شـيدنا المنشآت المختلفة لرعاية اليتامى والأرامل والعجزة ، فضلا عما أقيم من محلات للعبادة . ونخص بالذكر منها الكنيسة الذهبية فى انطاكية وكنيسة الاثنى عشر حواريا فى مكان الرسالة . . . وكان من المفروض بعد كل ما وضحته لك من أسباب الأمن والاستقرار ، أن ننعم فى هدوء بثمار جهـد هذه السنين الطوال . لولا هذا الأمر الذى يقض مضجعنا ويضيق به صدرنا ، وهو الذى حفزنا للكتابة لوالدتنا المبجلة لنحيطها علما بكل مايحيط بهذا الظرف الطارىء من ملابسات ، نرجو أن تكون محل تقديرها وعطفها .

ولعل والدتنا المبجلة تذكر مدى ما بذلناه من عنـاية بتعليم وتنشئة ولدنا الاكبر كريسيوس .

ولقد أحطناه بكل ما يجب أن يتوافر له من رعاية • وقدرنا له روحه العسكرية ومواهبه العالية فأسبغنا عليه من عطفنا الكثير ، وأصدرنا أمرنا بتعيينه قيصرا ، وهو لم يتجاوز بعد السابعة عشرة من عمره •

ولقد برهن بحق عن جدارته بهذا المنصب ، سواء فى ادارته لشئون بلاد الغال بكفاية ودراية ، أو فى مشاركته فى الحرب ضد الطاغية لوسيثيوس ومساهمته فى احراز النصر على قواته •

غير انه قد اتضح لنا بعد ذلك أن هذه الانتصارات كان لها رد فعلها السيء فى اشاعة الغرور فى نفسه ، هذا الغرور الذى نفخ فيه بعض اتباعه المغرضين واستزادوا منه • ولقد كنا لا نحرك ساكنا ازاء ما يرفع الينا من تقارير الواحد بعد الآخر عن نزواته وآرائه المتطرفة • ولقد تناولنا هذه الأمور برفق وعطف أبوى • ولكنه لم يرعو ولم يستجب لتوجيهاتنا ، مما أدى الى أننا رأينا أنه من الخير له ولنا أن ننقله الى احدى وظائف البلاط •

وقد جد بعد ذلك ما ضاعف من خطورة الموقف وزاده صعوبة ، فقد نمى الينا من مصادر موثوق بها ، أن القيصر الشاب ، وقد اعمته أطماعه ، كان يدبر مؤامرة ضد العرش وضد حياتنا • وانه ليحز فى نفسى ان تضطرنى الظروف الى سرد مثل هذه الأفعال الشائنة ، وما استتبعته من اجراءات اقتضتها المحافظة على كرامتنا وعلى سلامة الامبراطورية •

وكما تعودت دائما ، عندما تواجهنى مثل هذه المشكلات ، وعندما أكون بسبيل اتخاذ قرارات خطيرة ، سارعت بالكتابة اليك مستلهما منك الوحى ومسترشدا بتفهمك العميق لكل ما يستشكل على أمره »

حرر فى روما فى شهر يوليو من السنة السابعة والسبعين بعد الألف من تشييد المدينة • قسطنطين •

ذلك كان هو الخطاب الذى تلقته هيلينا على أثر عودتها ، بعد زيارة قبر والدها الى منزلها الصغير فى كامولودونم • ولقد تنبأت كعادتها دائما ، وهى تتسلم الرسالة من المبعوث الامبراطورى ، أنها تحمل اليها ما لا يسر من أنباء • بل ولقد اشتمت من الرسالة وهى

نفضها رائحة الموت. ترى موت من؟ قسطنطين؟ انه لم يزل صحيحاً معافى.. اذن فمن عساه يكون ؟.. وما ان اطلعت على الرسالة ؟ حتى القت بها على الارض ، وهى تلعن هؤلاء الوشاة الذين أفسدوا ما بين الاب وابنه . ونادت فى عصبية ظاهرة :

ـ تيرينتا !!.

فما أن مثلت الوصيفة من بين يديها حتى اصدرت اليها أمرها باعداد مربتها وحقائبها :

ـ اننا ذاهبون الى روما . اجل الى روما ولا تلحى على بالسؤال اخطرى اندريدا ورجال السلطة بالميناء لاعداد سفينة تبحر بها الى بغيتنا . سنعبر القناة الى فرنسا ، ثم نقطع المسافة برا . هيا اسرعى !.

واسرعت الوصيفة ، وهى تعجب من امر هذه السيدة التى تجاوزت الرابعة والسبعين من سنى حياتها ، ولم تؤثر فيها تلك الاعوام بطولها التاثير الذى يحد من نشاط الآخرين .

ولم تقلع فى طريقها الى روما من التفكير فى امر كريسيوس ـ الذى كان صورة طبق الأصل من جده . كريسيوس الشاب القوى الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، كريسبوس هذا يتآمر على حياة والده وعلى عرشه ! كيف سمح قسطنطين لنفسه أن يصدق مثل هذه المفتريات عن ولده ؟ ليس هذا من خلق ابنها ، انها ظاهرة لا تتفق وما جبل عليه . انه واقع تحت تاثير غيره . ولم يكن من الصعب عليها أن تهتدى لمصدر هذا التوجيه الآثم . انها فاوستا بدون شك . انها تعرض كريسيوس للتعرض له كى يفسح الطريق امام اطفالها . وانها لا تريد أن يتعرض ابناؤها لما تعرض اليه ابناء الامبراطورة تيودورا من قبل ، وأن يرث الابن من الزوجة الاولى عرش الامبراطورية ، كما ورث زوجها العرش عن والده .

وكانت ترجوان تصل قبل فوات الأوان . ان الافعى بعد أن تنفث سمومها ، ستتعجل نهاية ضحيتها .

***

ـ آسف يا مولاتى ، لقد وصلت متأخرة .

بذلك كان الاسقف اوزبوس يلقى بالنبأ المفجع على مسامع الامبراطورة الام .

ـ لقد قتل القيصر كريسبوس فى بولا من اسبوع مضى . لقد بذلت اقصى ما فى وسعى لاحول دون هذا . ولكن الامبراطور على خلاف العادة لم يستجب لى فى هذه المرة . لقد كان يرفض ان اناقشه فى ذلك ، بالرغم من منزلتى عنده .

ولم تختلج خالجة فى وجه الامبراطورة الام . بل ظلت جالسة فى سكون وصمت مستندة يديها على عصاتها . وراحت تردد بعد قليل :

ـ نفذ السهم . لقد حرصت على ان اصل الى هنا فى اقصر وقت ممكن . وبالرغم من ذلك وصلت متأخرة !.

ـ لقد وقع ذلك منذ اسبوع يا سيدتى . لم يكن من الممكن ان تصلى يا سيدتى فى الوقت المناسب ابدا . انك لم تقصرى فى شيء .. لقد قمت بما يجب عليك بقدر استطاعتك .. اننا لا نستطيع ان نمنع وقوع ...

ـ وقوع المحظور .. لم اكن اصدق ان نبوءة والدى ستتحقق بمثل هذه السرعة .. لقد قال عند ولادته :

ـ انه الموت بالنسبة لوالده ..

ـ والغبطة لامه لعلك لم تنسى الشطر الآخر من النبوءة ؟. متى ستقابلينه ؟.

ـ لم يعد هنالك اى داع للعجلة . بعد ان علمت بما حدث منك . وربما توجهت باكر لمقابلته .

ثم اتكات على عصاها وهى تميل الى الامام متسائلة :

ـ خبرنى . ما هو رايك فى هذه المؤامرة ؟ هل تآمر الابن على العرش وعلى حياة والده حقا ؟.

ـ على حياة والده ؟ اننى لم اسمع بشىء من هذا القبيل ، ولكنى اكنت قد سمعته لما صدقته . حقيقة أنه كان شابا له مطامعه وآماله ولكنه لم يكن ليتآمر على حياة أبيه . لا . لا . اننى لا اصدق شيئا من هذا القبيل ، من ذا الذى أنباك بذلك ؟

ـ الامبراطور فى رسالته التى بعثبها الى . ولقد اخبرنى بذلك فى صورة الواثق المتأكد من الامر .. وانك لتعرف خير المعرفة من هو المسئول عن تسميم أفكار الامبراطور !.

ولاذ الاسقف بالصمت . فقالت له هيلينا :

ـ ان صمتك أكثر فصاحة من كلامك .. لا اريد ان اسمع رأيك .

ثم نهضت من مقعدها ترتجف فى كمد وغيظ قائلة :

ـ سيدى الأسقف ، فليغفر لى الله .. لقد فشلت فى تحقيق رسالتى فى هذه الحياة !.

ونهض الأسقف بدوره قائلا :

ـ كيف تقولين هذا يا مولاتى ؟ انك من يرجع اليه الفضل فى كل هذا الامان الذى ينعم به المسيحيون . اننا نعيش دون خوف أو وجل . لقد ردت الينا حقوقنا الادمية على يديك .. آدميتنا المهدورة !.

ـ وماذا يجدينى اذا ما وضعت العالم كله فى كفى ، فى وقت افقد فيه ابنى روحه . أننى أم .. لقد سرح هذا الابن زوجته الأولى فى سبيل أطماعه . ثم قتل والد زوجته الثانية فى سبيل العرش . وأخيرا ها هو ذا يقتل فلذة كبده . ترى أى مخلوق هذا الذى أنجبته ؟.

ـ سيدتى . سيدتى !.

ـ هل تصلح هذه اليد الملطخة بالدماء لان تقيم مملكة يسوع المسيح على الارض ؟ ترى هل كنت أعد للعالم شيطانا رجيما ، لا ملكا رحيما !!.

فسألها الاسقف أن تعود وتتخذ لها مجلسا قائلا :

ـ انك جد متعبة ياسيدتى ، والا لما كنت تعوهت بمثل ماسمعته منك الآن . لقد جانبك الصواب فيما تحدثت به . انك لست مسئولة عن النفس البشرية وما سويت به . ثم أن هذه النفس ليست معصومة من الخطأ . لقد اخطأ القديس بطرس نفسه ، وكان فى الوقت نفسه موضعا لتقدير المسيح ، وعلى صخرة قبره بنيت كنيسته ! لقد ولدنا وولدت معنا الخطيئة . اننا لسنا منزهين عنها .. ولم تخل النفس البشرية من شوائب الجشع والأنانية والميل الى العنف والتجبر . ان النفس البشرية ان تنزهت عن كل ذلك وتطهرت من ادرانها عادت بنا الحياة الى أرض النعيم والجنة مرة اخرى . لقد مرت بالعالم آلاف السنين وهو على هذه الحال ، وان أمامه أضعاف اضعافها ليستعيد عهد النعيم الأول . لقد رأيت بشائر هذا العهد ، وقدر لك ان تكونى الوسيلة لتحقيق الكثير منه .. اننى رجل واقعى يا سيدتى ، لا احب أن ابتعد عن الواقع كثيرا .. لقد حققنا الكثير ولم يزل امامنا اكثر منه . ان قوة الشر فى هتفوانها ، وما اظنها الا باقية كذلك لآلاف السنين . ان الله يحب أن تترك مثل هذه الامور لسنة التطور . لقد كان بوسعه أن يقضى على نوازع الشر فى طرفة عين ، ولكنه لحكمة الهية يريد أن يدع الانسان لنفسه ولتوجيهات عقله الذى يعد منحة الله الكبرى « لبنى الانسان » .

واقبل أحد الاتباع لاهثا وهو يقول للأسقف :

ـ معذرة يا سيدى ولكن الأمر عاجل هام . لقد وفد رسول من قبل الأب تيميون لاخطار نيافتكم بأن جميع المقابلات والاجتماعات فى القصر قد الغيت .. ان الامبراطور يرفض مقابلة أحد !.

ـ ولماذا ؟ ما هو السبب فى هذه الأوامر الجديدة ؟.

ـ يقولون ان الامبراطورة قد توفيت فجاة !.

فنهضت هيلينا وصحت من تأملاتها قائلة :

ـ هيا بنا الى القصر .. هيا بنا فورا . وكان وجهها شاحبا ، وقد بدا من عينيها بريق العزم الأكيد .

- ٢ -

انفتحت أبواب القصر واحدا بعد آخر ، أمام السيدة العجوز المتكأة على عصاها السوداء . ولم يجرؤ أحد على اعتراض سبيلها ، وهي تتقدم بخطوات ثابتة في ردهات القصر ودهاليزه .

وكانت كلما تقدمت بضع خطوات ، تخلف عنها من كان يتبعها من ضباط الحرس وموظفي القصر . حتى الأسقف أوزيوس وتابعه كانا آخر من تخلف عنها لتقطع المسافة الباقية الى غرفة الامبراطور بمفردها . ان أحـدا منهم لم يجرؤ على الاقتـراب من غـرفة الامبراطور .

وما أن أصبحت أمام باب الغرفة الامبراطورية ، حتى تلاقت حربتا الحارسين الواقفين أمام الباب ليحولا دون دخول السيدة الغرفة . فرفعت عصاها الى نقطة التقاء الحربتين لتفرق بينهما في اصرار ونظرات ثابتة آمرة ، حدت بالحارسين الى الاعتدال في وقفتهما وتأدية التحية العسكرية لها ، بعد أن أدركا خطأهما .

ودلفت السيدة الى الغرفة لتجد رجلا مستلقيا على الفراش الموجود بها ، ما ان شعر بقدومها حتى هب ناهضا وهو يقول :

ـ أماه !

الامبراطور العظيم قسطنطين يعود طفلا يفزع الى ذراعي أمه .

فأسرعت اليه تعيده الى فراشه في رفق وحنان . وشعرت بيديه وذراعيه يتشبثان بها كما يتشبث الغريق بمن يحاول انقاذه .. وسمعته يتمتم بكلمـات لم تتبينها أو تدرك لها معنى ، لأنه كان يدفن وجهه في طيات معطفها . وبعد قليل أدركت انه يقول لها :

ـ لقد قتلتها يا والدتي ، قتلتها .. قتلتها يا أماه !

وأحست بقلبها ينقبض ، وبرعدة باردة تسري في أوصالها ..

الآن ، فهى لم تخطىء فى حدسها . انها دائما تشعر بالأمر قبل وقوعه . انها تحس بكل شيء وبكل ما يدور حولها . بل انها تنبأت بذلك قبل يوم زواجهما . هذا الزواج الذى لم ترض عنه . فرحلت قبل أن تشترك فى مراسمه .

انه وان كان فاتها أن تحضر فى الوقت المناسب بالنسبة لكريسيوس ، الا أنها حضرت فى الوقت المناسب بالنسبة لقسطنطين . تلك هى الأقدار . الأقدار التى رتبها الله وجعل لكل منها حدا . لقد حضرت لتنقذ حفيدها . ولكن الأقدار قد رتبت لها السبب لتحضر ، ولكن لتنقذ ابنها . ولم تعقب بشيء على ما سمعت . بل راحت تربت بيدها على الرأس التى اسلمها صاحبها اليها ووجدت الهدوء بين يديها ..

وبعد ان استطاع اخيرا ان يتمالك نفسه ويجلس بين يديها ، تأملت وجهه فى حنان الأم الجزعة ، وهالها ما تبينته فيه من هم وغم ، خطتها يد لا ترحم ولم ترفق به ..

ــ اخبرنى بكل شيء يا ولدى .. بكل شيء !

واقتضى منه ذلك جهدا كبيرا .. لقد وجد الامبراطورة فى احضان أحد الخدم .

ــ لقد استبد بى الأرق بعد موت كريسيوس . وتوجهت اليها لأستفسر منها عما اذا كانت واثقة مما اخبرتنى به عنه ، فلقد صارحتنى بانه حاول معها أمرا نكرا ..وأثارتنى ضده بانه وعدها بأن تعيش كملكة عندما تعاونه فى القضاء على ، وتحدثت الى ولدى بما قالته لى فانكر وانكر مؤكدا كذبها فيما قالت . ولكننى لم أصدقه . لم أصدقه لأننى كنت قد سمعت عن أطماعه من قوم آخرين ، فقارنت هذا بذلك .. ودخلت لأسمع منها مايريح ذهنى المكدود فوجدتها كما قلت لك ، وقتلت العبد الحقير من فورى ، ثم أمرت باعداد حمام ساخن للامبراطورة ، حمام ساخن تبلغ حرارته حد اذابة ذنوبها فى مائه المغلى . وهكذا قضت نحبها .. أماه ، لماذا قدر على أن ارتكب كل هذا .. لماذا كان يجب أن اقتل

ماكسيميان ! . ومن بعده كريسبوس ؟ ثم فاوستا أخيرا .. لماذا ؟ لماذا يا أماه ؟

فانت هيلينا انين الموجع . وطالبت ولدها بالهدوء . ثم سمعته يستطرد قائلا :

ـ انه ليخيل الى أحيانا أننى لم أرتكب كل هذه الأخطاء ؟ انه شخص آخر ويد أخرى !

فرفعت وجهه اليها بين يديها ، وثبتت عينيها فى عينيه قائلة :

ـ اذا لم تتحمل مسئولية آثامك ، فلن يتأتى لك أن تضطلع بعمل الخير . ان ما فعلته فعلته بارادتك ولن تستطيع أن ترجع فيه . لا تحاول ان تلقى بعبء اللوم على عاتق غيرك ، ولا تلومن الا نفسك . ليس امامك الا أمر واحد يمكنك ان تفعله .

وتوقفت قليلا قبل أن تواصل حديثها . انه ابنها وفلذة كبدها . وعليها أن تضغط قليلا على مشاعرها . انه يمر بأسوأ لحظات حياته كلها . وهذا الرجل الذى بلغ الخمسين من عمره هو امبراطور العالم الرومانى قاطبة . انه رمز امانى أمبراطورية بأسرها . انه المجد والنصر والعظمة لها . انه الامبراطور الذى حكم الشرق والغرب ، وواصل رسالة والده وأعاد للمسيحيين حقوقهم وآدميتهم المهدرة . فقالت لى لتزيل عن نفسه ما بها من جزع .

ـ لن تسأل عن قتل الامبراطورة . وذلك لأنك رئيس الدولة ورأس الأسرة المالكة ، الذى لا يسأل قانونا عن تصرفاته . وحتى لو لم تكن فى منصبك هذا ، فان القانون لا يعاقب من يجد زوجته فى هذا الوضع ويقتلها . ان الأمر قد تجاوز حد المساءلة الدنيوية عن تصرفاتك أو محاولة تبريرها . ان ما وقع منك قد انقضى أمره وأصبح ماضيا سيلتصق باسمك ويشوب أمجادك فى عين التاريخ التى لا ترحم . وليس أمامك الآن لتريح ضميرك وتطهر نفسك غير أن تكرس حياتك لخدمة الله واعلاء كلمته فى الارض ، فتذهب حسناتك بسيئاتك .

ثم أمسكت عن الكلام قليلا ، وراحت تستعرض ما قاله لها والدها عند مولد ابنها ، وما تحقق من ذلك كله على مر الزمن ، الا تلك النبوءة الخاصة بأنها مع ولدها هذا ستوفق الى العثور على شجرة الحياة . وشجرة الحياة هى صليب مخلص البشرية وضحية ظلم الانسان لأخيه الانسان . واطرقت براسها قليلا قبل أن ترفعها قائلة :

ـ يجب ان اعثر على الصليب ، الصليب الحقيقى !.

ـ أماه ، لقد اختفى هذا الصليب منذ وفاة المسيح . كيف تأملين فى ...

فقاطعته مبتسمة :

ـ انتى سأعثر عليه يا ولدى .. وكلّ ما اطالبك به أن تزودنى بسلطات مطلقة ، وأن تضع تحت تصرفى السفن والرجال والمال وكل ما يلزم لهذه المهمة .

ـ انك تستمدين سلطانك من قوة اعلى . ان كل امكانيات الامبراطورية تحت أمرك .

ـ وبذلك ستمحو حسنتك هذه كلّ ما اركبت من سيئات فى عين التاريخ . أما الله فهو وحده الذى يملك المغفرة والمثوبة .

- ٣ -

اسقط فى يد الاب مكاريوس اسقف اورشليم ، عندما تلقى تلك الرسالة الامبراطورية ، التى تحمل اليه نبأ رحيل الامبراطورة الأم الى الاراضى المقدسة واعتزامها الاقامة باورشليم . وفيها امره الامبراطور ـ بصيغة مهذبة لبقة ـ أن يعاون والدته فى مهمتها التى رحلت من اجلها ، الا وهى تشييد كنيسة على جبل الجلجثة والعثور على الصليب الحقيقى ، الذى صلب عليه المسيح ، الصليب المفقود منذ اكثر من الثلاثمائة عام .

كنيسة اعلى قمة الالم . فوق جبل العذاب حيث صلب المسيح . ان احدا من اورشليم لم يكن ليعرف اين توجد هذه البقعة المقدسة على وجه التحديد . ان أورشليم محاطة بعدد من الجبال والتلال التى يحتمل لأى منها ان يكون جبل كالقارى أو جبل الالم والعذاب منذ تلثمائة عام مضت .

اما عن الصليب الحقيقى فليس ثمة اى امل فى العثور عليه . فمن اين يبدأ ؟. وممن يتحرى عن ذلك ؟.

ان لديه من المهام الكثير ، مما يشغل يومه من شروق الشمس الى غروبها . او كان ينقصه هذا العبء الجديد من البحث عن شيء اختفى ولم يظهر له اى اثر منذ مئات السنين !.

ان عليه ان يواصل تحرياته ويتصل بكل ذى شان فى هذا الموضوع ، لعله ان يهتدى الى ما ينير له الطريق . وعليه أيضا أن يشرف بنفسه على كل هذه الأبحاث ونتائجها حتى لا يشوبها شيء من ادعاء المدعين وعدم تمكن المشيرين والباحثين .

وما ان وصلت الامبراطورة الام الى اورشليم حتى قلبتها راسا على عقب ، لقد جاءت يصحبها العشرات من الخبراء والباحثين الذين تفرقوا فى طول البلاد وعرضها منقبين باحثين مستجوبين .

ولم يصل هؤلاء الا الى كل خبر متناقض ومعلومات متعارضة ؟ وكان هذا هو النتيجة الطبيعية لتعدد مصادر تلك التحريات وتباين المتطوعين بها . ولم يرض أحد ممن سئل من القساوسة ورجال الدين ، ان يقول لا أدرى .. بل كانوا يحرصون على الادلاء باية معلومات مكابرة وحبا فى ارضاء الامبراطورة التى قاربت السادسة والسبعين وكانت فى نشاط وحيوية رجل الأربعين .

ولكم قضت من الساعات الطوال على منحدرات جبل الزيتون منقبة باحثة بنفسها ، مصلية متعبدة ضارعة. ولقد تسببت بكثرة حركاتها فى الكثير من الحرج لرجال الأمن فى اورشليم . حتى أن رئيس البوليس سليشيوس ، توجه لمقابلة الأسقف مكاريوس وقال له :

ـ الا يمكن أن تضع حداً لكل هذا ؟ . اننا لا ننام الليل . لقد ضقنا ذرعا بكل ذلك . انها تخرج اثناء الليل متسللة دون أن نحاط علما بتحركاتها . انها تعتقد ان مرافقة الحرس لها يباعد بين الناس وبين التبسط معها فى القول . لقد بدأت اشعر بالحرج والارهاق .

ـ اعرف ذلك . واعرف اننا نمر بفترة استثنائية . ان الامر يزداد تعقيدا وصعوبة ، بكل تلك الاقاويل المتضاربة والمزاعم البعيدة عن الحقيقة .

ـ أما كان من الاوفق يا سيدى أن تصارحها بحقيقة الأمر .. حتى تدرك الامبراطورة الأم ان هذا البحث لن يجدى فتيلا . ان الجبال المحيطة بأورشليم لا تقل عن ثمانية . ان مئات من العمال تجرى حفرياتها فى قمم هذه الجبال ومنحدراتها . ثم اذا سلمنا جدلا بانها ستهتدى الى مكان هذا الجبل ، فهل ستتمكن بعد هذا من العثور على الصليب ، انك لتعلم اكثر منى بأن هذا من الامور المستحيلة .

ـ من يدرى ؟ يؤسفنى ان اصارحك بانه ليس فى مقدورى مساعدتك . انها قوة خارقة لا يمكن مقاومتها ، وعزيمة من حديد لا تلين ، لماذا لا تحاول أنت أن تقنعها بذلك .

***

لم يبق من الجبال المحيطة بأورشليم الا جبلان لم تطأهما بعد اقدام الامبراطورة الام . احدهما قد اكتسى بالعشب والأزهار ، والآخر قد انتشرت فى جنباته بقايا معبد متهدم قديم . هذا المعبد الذى شيده من مئات السنين الامبراطور ادريان . انه معبد الآلهة فينوس ، معبودة الرومان قديما . وكان سيمون ، الصبى العاجز الذى ارتضته الامبراطورة دليلا لها ، مسترسلا فى حديثه عن هذا المعبد ، ولكنه توقف فجاة عندما لاحظ ان السيدة لا تصغى اليه . ورفع بصره اليها ، فوجدها ساكنة فى مكانها لا تتحرك . تتأمل التل بخرائبه ، وقد كست حبات العرق جبينها . وخيل للصبى انها متعبة او مريضة ، وتأملها جيدا ورآها تحدق النظر فيما امامها بطريقة غير عادية .



وظال بهيلينا وقوفها . وظال بها صمتها وتحديقها فيما أمامها .
ثم بدات تتحرك رويدا رويدا مرتقية الجبل صعودا ، فى اتجاه قمته حيث توجد خرائب المعبد . وكانت تمشى على خشوع الرهبة والذكرى ، وقد ملأت اذنيها الحان أنغام لا تعرف لها مصدرا ، تعم ما حولها من فضاء وسماء ، ومع كل خطوة من خطواتها ، كانت تسمع هزيم الرعد ، وترى الأشجار تنحنى خاشعة ممتثلة .

وعند مشارف الخرائب توقفت ، وقد شحب وجهها ، وغاضت منه دماء الحياة ، ثم رفعت عصاها فى اتجاهها قائلة :

ـ تلك الخرائب يجب أن تدك اليوم من أساسها !

***

واحتشد القوم بعد ظهر اليوم التالى يشاهدون رفع بقايا المعبد واطلاله ، وتطهير المكان من كل ما به . وكان من بينهم رجال الدولة والدين والجيش . وقد توسطت هؤلاء جميعا الامبراطورة الأم هيلينا ، وقد تعلقت انظارها بعملية الحفر التى اعقبت تطهير القمة من خرائب المعبد . وكان الأسقف مكاريوس يقف الى جانبها ، لا تزايل عيناه الحفرة التى كانت تزداد عمقا خلال تلك الساعات الثلاث التى انقضت على وقوفهم فى هذا المكان .

انه كان يعرف أن الامبراطور ادريان ، عدو المسيحيين اللدود ، قد شيد فى هذه البقعة معبدا لفينوس منذ اكثر من مائتى عام ، وانه لا يستبعد أن تبلغ كراهية هذا الامبراطور به حدا يحدو به لاقامة هذا المعبد ، حتى لا تصبح لهذا المكان قدسيته لدى المسيحيين . انه لمنطق معقول يكاد يقترب به من الحقيقة . وبينما هو غارق فى تاملاته سمع صيحات الرجال تتصاعد من الحفرة واحدة تلو اخرى :

ـ خشب ! . خشب ! . خشب !

ورأى هيلينا مرتعدة الاوصال مرتجفة ، تسقط على ركبتيها راكعة خاشعة . وخيم السكون على المكان ، وسكنت الحياة فيه ، وتعلقت الأبصار بالحفرة المقدسة ، شاخصة محملقة مترقبة .

وحذا الاسقف مكاريوس حذو الامبراطورة ؛ وركع جميع الحاضرين عندما شاهدوا الرجال يرفعون الى اعلا ثلاثة صلبان خشبية .

وحاولت هيلينا ان تنهض واقفة ، فلم تستطع . واضطر مكاريوس ان يعاونها بمساعدة الدليل الصبى سيمون . وتقدمت مرتجفة الى حيث وقفت تنتحب باكية امام الصلبان الثلاثة . ولمح مكاريوس فى يد أحد العمال ورقة من أوراق الكتابة بها بقايا حروف عبرية واغريقية ولاتينية . وادرك من ذلك ان أحد هذه الصلبان هو الصليب الحقيقى . ولكن ايهم هو هذا الصليب المنشود ؟

وقبل ان ينتهى من تفكيره فى ذلك ، ابصر بهيلينا تحتضن احد الصلبان كما تحتضن الأم وليدها . ثم رآها تقبض على كتف الصبى العاجز سيجون وتدفعه حتى يلتصق بذراعه المشلولة بالصليب . وشعر بلفحة من النار تسرى فى ذراعه العاجز حملته أن يبتعد عنه فى خفة القادر على الحركة رافعا يده فى الهواء .. وتأمل الجمع الحاشد ذاك المشهد ، وايقنوا أن هذا الصليب بالذات هو الصليب الحقيقى . الصليب الذى أعاد الحركة الى ذراع الصبى الأشل . وتبادل كل من مكاريوس وهيلينا النظرات ، وانحنى الأسقف ليقبل قائم الصليب .

وحمل مكاريوس الصليب بمساعدة اثنين من القساوسة ، وتقدم الركب العائد الى أورشليم ، وهم يرددون ترانيم المسيحية فى فرحة المنتصر بعد أن عثروا على ضالتهم ..

- ٤ -

ـ لقد استسلمت للنوم ..

قالها قسطنطين فى صوت خافت !

ـ حدثينى بكل شىء .. بكل شىء ..

واتجهت الوصيفة تيريتتيا ببصرها مرة اخرى نحو الشرفة الصغيرة التى كانت تجلس بها الامبراطورة على مقعدها الكبير مستسلمة للنوم . وكان وجهها أقرب ما يكون الى وجه طفل صغير حديث الولادة ، لا يعى مما يحيط به شيئا .

وجلس كل من الامبراطور والأسقف أوزيوس ينصتان باهتمام بالغ لما تسرده عليهما تيريتتيا فى صوت هامس خاشع ، بعد أن اطلعا على التقرير المفصل الذى بعث به الاسقف مكاريوس عن القصة بحذافيرها . وذلك لان الامبراطورة لم تكن فى حال تسمح بالحديث معها .

ـ لقد عثروا على المسامير المقدسة ايضا ، وعلى رمح . لعله الرمح الذى طعن به المسيح فى جنبه . وتركت السيدة قطعة كبيرة من الصليب للاسقف مكاريوس ليقيم لها كنيسة خاصة ، بعد أن وضعت فى مقدس جميل من الفضة . ولقد فقد منا احد المسامير الثلاثة اثناء عودتنا بطريق البحر . ولم نستطع أن نتبين السر فى اختفائه . اما المسماران الآخران ، فقد احتفظت بهما الامبراطورة معها . ولقد تعرضنا لعاصفة هوجاء فى طريق عودتنا حتى خيل الينا ان اليم سيبتلعنا . ولكن العاصفة سكنت فجأة ، واستعاد البحر هدوءه !

وأومأ الأسقف أوزيوس برأسه . لقد سرت فى روما اشاعة بأن الامبراطورة قد ألقت بأحد المسامير الثلاثة فى البحر عندما اشتدت العاصفة ، فهدأت العاصفة فجأة .. واستطردت الوصيفة قائلة :

ـ واشتدت وطأة المرض على الامبراطورة بمجرد مغادرتنا السفينة عند عودتنا . ولكنها اصرت على أن تواصل السفر الى روما . واعتقد انها كانت تريد مواصلة طريقها بعد ذلك الى بريطانيا ..

فقال أوزيوس معلقا على ذلك !

ـ انها اعظم امرأة انجبتها بريطانيا ..

واستأنفت تيريثيا حديثها قائلة !

ـ وأمرتني بعد الظهر برفع الغطاء عن القدح الذهبي الذي كانت تحمله .

وأسرع أوزيوس يستفسر منها !

ـ وماذا كان به ؟.

ـ حفنة من التراب الأبيض اللون. وراحت تتأمله قليلا ، واعتقد أنها كانت تصلى أثناء ذلك . ثم امسكت بالقدح ورفعته الى فمها وأفرغت ما فيه فى جوفها .

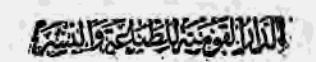
وحملق قسطنطين فى وجه أوزيوس دهشا متسائلا . فأومأ الأسقف برأسه ايماءة العارف بسر هذا التصرف .

وفجأة تأمل ثلاثتهم السيدة الجالسة على مقعدها بالشرفة ، ولم يكن هناك ما يسترعى انتباههم أو يستثير فضولهم . ولكنهم نهضوا مسرعين الى حيث تضطجع الامبراطورة فى مقعدها ، بعد أن ساورهم القلق عليها لطول سكونها .

وكانت عيناها مفتوحتين ، تحدقان النظر فى شىء أمامها ، وقد اكتسى وجهها بتعابير الدعة والحنان ، وعكست عيناها علامات الرضا والمحبة .

فاتجهت أنظارهم صوب الناحية الأخرى من الشرفة لتقع على الصليب الضخم وقد انعكست عليه أشعة الشمس الهابطة فى أفق الغروب . وبدت وكأنها تضيىء بخيوطها الحمراء فى لون الدماء السائلة جنبات الخشب الحى .

« تمت »


الدار القومية للطباعة والنشر


ARAB
OBSERVER


L'OBSERVATEUR
ARABE


The Scribe
ARAB REVIEW


El Escriba
REVISTA ARABE